جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

من أسرار النظم
فى ختم الفاصلة القرآنية
بالغفور الرحيم والرءوف الرحيم

✍ الدكتور

عادل محمد محمد الأكرت

أستاذ البلاغة والنقد المساعد
فى كلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر

العدد التاسع عشر
للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م
الجزء السابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي يعود على العباد بالمغفرة والرحمة إذا رجعوا إليه سبحانه بالتوبة والاستغفار.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله ، أعطاه ربه سبحانه صفتين من صفاته، فقال سبحانه: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، سورة التوبة : الآية ١٢٨.

وبعد ،،،

فالقرآن الكريم كتاب هداية ورحمه، أنزله الرءوف الرحيم على نبى الرأفة والرحمة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فقال سبحانه: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾، سورة الحديد: الآية ٩.

والله عز وجل له الأسماء الحسنى والصفات العظمى، قال تعالى:﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا..** ﴾ ، سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

ومن أسماء الله الحسنى التى لا تحصى ومن صفات كبريائه الأسنى الغفور الرءوف الرحيم.

وقد اقترنت صفة المغفرة بصفة الرحمة فى القرآن الكريم فى أربعة وثمانين موضعاً، واقترنت صفة الرأفة بصفة الرحمة فى تسعة مواضع.

والحديث عن المغفرة والرأفة والرحمة حديث متعدد الجوانب؛ زاخر باللطائف. لذا رأيت أن أكتفى بجانب واحد من جوانبه وهو اقتران المغفرة بالرحمة، واقتران الرأفة بالرحمة محاولاً الكشف عن النكت البلاغية الكامنة فى

اقتران هذه الصفات وختم الفاصلة بالغفور الرحيم والرءوف الرحيم، والوقوف على مقامات التعبير بالمغفرة والرحمة، ومقامات التعبير بالرأفة والرحمة. وكان منهجى فى هذا البحث ما يأتي :

١- دلالة اقتران المغفرة بالرحمة.
٢- دلالة اقتران الرأفة بالرحمة.
٣- مقامات اقتران المغفرة بالرحمة.
٤- مقامات اقتران الرأفة بالرحمة.
٥- ترتيب المغفرة والرحمة فى الذكر.
٦- ترتيب الرأفة والرحمة فى الذكر.
٧- خصائص نظم المغفرة والرحمة.
٨- خصائص نظم الرأفة والرحمة.

فالله أسأل أن يكون عملى خالصاً لوجه الله الكريم ، وأن يرزقنـــى التوفيــق والسداد، إنه سبحانه أكرم من سئل وخير من أجاب.

عادل محمد محمد الأكرت

١ - دلالة اقتران المغفرة بالرحمة

إذا تأملنا معنى المغفرة والرحمة وجدنا بينهما ترابطاً وتلازماً، وهذا ما يوهم أنهما مترادفان ولكنهما فى الحقيقة متغايران.

فالمغفرة هى:

ستر ذنوب العبد والتجاوز عنها فلا يعذب بها، قال الراغب: "والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب"(١).

والرحمة هى : إفضال من الله على عباده وإحسان إليهم بحصول الخير لهم، قال الراغب: "الرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة وتارة فى الإحسان المجرد عن الرقة، نحو : رحم الله فلانا، وإذا وصف به البارى سبحانه فليس يراد به إلا الإحسان المجرد عن الرقة، وعلى هذا روى أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتفضل"(٢).

والعلاقة بين المغفرة والرحمة علاقة واضحة قوية، فالمغفرة مرتبة على الرحمة ومسببة عنها، فالله سبحانه يغفر ذنوب عباده لأنه عز وجل رحيم بهم متفضل عليهم محسن إليهم، فالرحمة سبب فى المغفرة وعلة لها.

كما أن الرحمة أعم من المغفرة، فالرحمة تشمل المغفرة وتشمل جميع أنواع الخير فى الدنيا والآخرة، فمن رحمته سبحانه التجاوز عن سيئات العباد وعدم معاقبتهم، ومن رحمته الزيادة فى الثواب والإحسان إلى العباد بالنعم، كما أن رحمة الله الله تشمل جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم أما المغفرة فهى خاصة بالتائبين من عباده، قال سبحانه: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ سورة طه: الآية ٨٢. كما أن رحمة الله سبحانه شملت جميع المخلوقات على اختلاف أجناسها، قال سبحانه:﴿**..رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا..**﴾ **سورة غافر: الآية ٧.**

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٣٧٤.

(٢) المرجع السابق: /١٩٦.

مما سبق يظهر وجه اقتران المغفرة بالرحمة، فلولا رحمة الله سبحانه ما غفرت ذنوب العباد، ولا يتحقق ما يحتاج إليه الإنسان إلا بالمغفرة والرحمة معاً، فالإنسان يحتاج إلى دفع الضرر وسلامته من العذاب بعدم مؤاخذته بذنوبه، وهذا يتحقق بمغفرة الله، ويحتاج إلى حصول الخير والنفع والثواب، وهذا يتحقق برحمة الله وإحسانه.

٢- دلالة اقتران الرأفة بالرحمة

الرأفة والرحمة مفهومهما متقارب إلى حد يوهم أنهما مترادفان. فعند سماع كلمة الرأفة يتبادر إلى الذهن أن المراد بها الرحمة. قال الخليل بن أحمد: "الرأفة الرحمة، وقد رأف يرؤف رأفة، ويقال يرأف فهو رأف ورءوف"(١).

وعند التأمل ندرك أن الكلمتين متغايرتان، فلا تسّد إحداهما مسّد الأخرى.

فقد أشار صاحب الصحاح إلى أن الرأفة نوع من الرحمة، فهى أخص من الرحمة وأدل على المبالغة فى الرحمة، وذلك فى قوله: "الرأفة أشد من الرحمة"(٢).

وقال أبو هلال العسكرى: "الرأفة أبلغ من الرحمة"(٣). فالرأفة نوع من الرحمة، ويدور معناها حول التخفيف والتلطف والشفقة فى المعاملة، وإزالة الضرر والمكروه، فهى نعمة خالصة من الألم تحقق خيراً للمرءوف به بدون أن يخالطه أذى أو مكروه، وهذا بخلاف الرحمة، فقد تكون الرحمة عن طريق إلحاق المكروه بالمرحوم؛ لأن عاقبة هذا المكروه خير ونفع، وهذا كما يصنع الوالد مع ولده، يشد عليه ويقسو ويلزمه بأعمال فيها مشقة وعناء ليحقق له فى النهاية الخير والنفع والفلاح والنجاح.

---

(١) كتاب العين : ٨٢/٢، تحقيق عبد الحميد هنداوى – نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى ١٣٦٢/٤، تحقيق أحمد عبد الغفور عطاط رابعة ، نشر دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٩٠م.

(٣) الفروق اللغوية: ١٦١ ، ط. دار الكتب العلمية بيروت.

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما: فليقسو أحيانا على من يرحم.

وكما يصنع الطبيب حيث يعمل مبضعه فى جسم المريض لإزالة ما فيه من أذى، وهو بذلك يرحم المريض عن طريق إلحاق المكروه به. قال بن منظور: "والرأفة أرق من الرحمة، ولا تكاد تقع فى الكراهة، والرحمة قد تقع فى الكراهة للمصلحة"(١). وقال أبو السعود فى توضيح هذا الفرق: "وقيل الرحمة أكثر من الرأفة فى الكمية، والرأفة أقوى منها فى الكيفية؛ لأنها عبارة عن إيصال النعم الصافية عن الآلام، والرحمة إيصال النعم مطلقاً، وقد تكون مع الألم كقطع العضو المتآكل(٢).

فالخلاصة أن الرأفة لها دلالة مغايرة عن دلالة الرحمة، واقترانهما معا للدلالة على الجمع بين المعاملة بلطف وشفقة والتخفيف مما يثقل على النفس بإزالة المكروه وبين الإنعام والإحسان بصورة عامة سواء كان ذلك عن طريق ما يكره أو بدونه.

٣- مقامات اقتران المغفرة بالرحمة

معظم ما جاء من اقتران المغفرة بالرحمة فى القرآن الكريم وقع فى ختام الآيات، وجاء الختام مناسباً للسياق المقرون به ومتناسقا مع المعنى العام فى الآية، بحيث إن السامع يدرك الخاتمة قبل النطق بها عند سماع بداية الآية.

ومما يدل على قوة المناسبة وشدة الترابط بين خاتمة الآية وبدايتها ما روى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ قول الله سبحانه: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ سورة المائدة: الآية ٣٨. ولكن القارئ ختم الآية بقوله: "والله غفور رحيم" . بدل قوله تعالى "والله عزيز حكيم" ، فقال الأعرابى: ليس هذا كلام الله تعالى، فقال القارئ: أتكذب بكلام الله؟ فقال

(١) لسان العرب: مادة رأف ، ط . دار المعارف.

(٢) تفسير أبى السعود: ٢٠٧/١.

الأعرابى: لا ولكن ليس هذا بكلام الله. فعاد القارئ إلى حفظه وقرأ "والله عزيز حكيم"، فقال الأعرابى: صدقت ، عز فحكم، ولو غفر ورحم لما قطع(١).

الغالب والكثير فى اقتران المغفرة والرحمة فى القرآن الكريم أن يأتى فى مقامات الحديث عن ذنوب العباد ودعوتهم إلى التوبة والمبادرة بالاستغفار، ودعاء المؤمنين بمغفرة ذنوبهم ورحمة الله بهم وما يشبه هذا المقام مثل الترخيص فى فعل المنهى عنه أو عدم فعل المأمور به، وعدم المؤاخذة على فعل يصعب الاحتراز عنه أو فعل فى ارتكابه عتاب لا عقاب، وفى ترغيب العباد فى العفو والصفح، وفى الجمع بين الوعد والوعيد، والمناسبة واضحة وظاهرة بين هذه المعانى وبين التذييل بالمغفرة والرحمة. فتعقيب هذه المعانى بالمغفرة والرحمة فيه تقوية الأمل فى نفوس المذنبين وحث لهم على العودة إلى ربهم والمبادرة بالتوبة، لأنه سبحانه غفور رحيم، كما أن التعقيب بالمغفرة والرحمة فى مقام دعوة العباد إلى العفو والصفح فيه ترغيب العباد فى العفو والصفح، لأنهم إذا فعلوا ذلك فهم مقتدون بالغفور الرحيم...

تأمل قول الله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ سورة النساء: الآية ١١٠، وقوله تعالى: ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التوبة: الآية ١٠٢،﴿ ... **فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة إبراهيم: الآية ٣٦ ، وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أن رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا أن رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة النحل: الآية ١١٩، وقوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ سورة القصص: الآية ١٦، وقوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا**

(١) جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام: لابن القيم الجوزية،/٩٣، بتصرف قليل.

رَّحِيمًا ﴾ سورة الفرقان: الآية٧٠، وقوله تعالى: ﴿...وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة المزمل: الآية ٢٠، وغير ذلك من الآيات التى تتحدث عن الذنوب والدعوة إلى التوبة والاستغفار ثم يأتى التعقيب بالغفور الرحيم لبث الأمل فى نفوس المذنبين وترغيبهم فى الاستغفار والعودة إلى ربهم لأنه سبحانه غفور رحيم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة البقرة: الآية ١٧٣. نجد أن فى الآية ترخيصاً للمضطر فى أكل المحرمات، فلا مؤاخذة عليه فى ذلك ، وجاء التذييل بالغفور الرحيم إيذاناً بأن الله يغفر له اضطراره ، وينعم عليه بالترخيص فى أكل ما حرم الله، فالله سبحانه يغفر المعاصى فأولى ألا يؤاخذ بما رخص فيه، ومن رحمته أنه رخص(١).

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة المجادلة: الآية ١٢. ففى الآية ترخيص لغير القادرين على تقديم صدقة عند مناجاة الرسول ﷺ ، فمن لم يجد صدقة يقدمها عند المناجاة فلا عقاب عليه ، فالله سبحانه وتعالى يغفر له ذلك ويتفضل عليه بالثواب.

* * *

وانظر إلى ترغيب العباد فى العفو والصفح وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة النور: الآية ٢٢، نزلت الآية فى شأن سيدنا أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – مع ابن خالته مسطح بعد أن خاض مسطح فى حديث الإفك ، فأقسم سيدنا أبو بكر أن لا ينفق عليه، فنزلت الآية داعية إلى العفو والصفح، وذيلت بذكر مغفرة الله

(١) تفسير القرطبى: ٦١٢/١.

ورحمته على جميع العباد مهما بلغت ذنوبهم فأولى بهم أن يعفوا ويصفحوا حتى يكونوا أهلاً لمغفرة الله ورحمته.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أن مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التغابن: الآية ١٤. فالآية تدعوا إلى العفو الصفح عن الأزواج والأولاد، وجاء وصف الحق سبحانه بالغفور الرحيم قائماً مقام جواب الشرط ، فمن عفى وصفح كان أهلاً لمغفرة الله ورحمته.

* * *

وتأمل الجمع بين الوعد والوعيد والرغبة والرهبة ليكون المؤمن بين الرجاء والخوف، فلا يقنط من رحمة الله مهما كانت الذنوب، ولا يغتر بسعة رحمة الله سبحانه، كما فى قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أن اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة المائدة: الآية ٩٨ . وقوله تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ** ﴾ سورة الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠.

فالمناسبة واضحة فى كل ما سبق بين المغفرة والرحمة وبين السياق ، حيث يكون التذييل بالمغفرة والرحمة تمكيناً للمعنى وتعليلاً له...

* * *

والأمر اللافت للنظر فى تعاقب المغفرة والرحمة فى القرآن الكريم وروده فى سياق ليس فيه حديث عن الذنوب والمعاصى والدعوة إلى الاستغفار من الذنوب وما يشبه ذلك من المعانى التى تظهر فيها المناسبة بين المغفرة والرحمة وبين السياق. فقد جاء التعقيب بالمغفرة والرحمة فى مقامات تتحدث عن المؤمنين وأعمالهم الصالحة، وفى مقام تعداد نعم الله على عباده ، مثل هذه المقامات لا تظهر المناسبة فيها إلا بعد إعمال فكر وطول تأمل وكثرة تدقيق.

من هذه المقامات قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أو مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أو قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ سورة آل

عمران: الآيتان ١٥٧، ١٥٨. فى الآيتين ترغيب فى الجهاد فى سبيل الله وتسلية للمؤمنين عما أصابهم من الجهاد، فالموت والحياة بيد الله وحده، فلا الجهاد يقرب الآجال ولا القعود يؤخرها، ثم أن مفارقة الدنيا أمر حتم على جميع الخلائق ، ولكن إذا وقع القتل أو الموت فى سبيل الله فإن شيئاً قليلاً من مغفرة الله ورحمته خير من الدنيا وما فيها.

وقد جاء جواب القسم فى الآية الأولى قوله سبحانه وتعالى:﴿ ... **لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ وجاء فى الآية الثانية قوله تعالى: ﴿**لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ..** ﴾ والنظرة الأولى لا تكشف عن وجه المناسبة بين القتل أو الموت فى سبيل الله وبين المغفرة والرحمة، فالسياق ليس فيه حديث عن ذنوب اقترفوها أن قتلوا فى سبيل الله غفرت لهم، ولكن عند التأمل والتدقيق تظهر المناسبة بين المقسم عليه وجواب القسم.

ذهب الفخر الرازى إلى أن المناسبة فى الآيتين ترجع إلى أن الآيتين تجمعان مقامات العبودية وهدف الإنسان من عبادة الله سبحانه، فمن الناس من يعبد الله خوفاً من عقابه، ومنهم من يعبده رغبة فى ثوابه، فجاء الجواب فى الآية الأولى ﴿**لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ..**﴾ دلالة على هذين المقامين. ومنهم من يعبد الله تحقيقاً لعبوديته وشوقاً إلى وجهه الكريم لا رهبة ولا رغبة، فجاء الجواب فى الآية الثانية ﴿**لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ..** ﴾ دلالة على هذا المقام، وذلك فى قوله: "فانظر فى ترتيب هذه الآيات، فإنه سبحانه قال فى الآية الأولى: ﴿... **لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ..** ﴾ وهو إشارة إلى من يعبده خوفاً من عقابه ، ثم قال: ﴿**ورحمة**﴾ إشارة إلى من يعبده لطلب ثوابه، ثم قال فى خاتمة الآية الثانية: ﴿**لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ..** ﴾ وهو إشارة إلى من يعبد الله لمجرد الربوبية والعبودية، وهذا أعلى المقامات وأبعد النهايات فى العبودية[١].

(١) تفسير الفخر الرازى: المجلد الرابع/٥٢٢.

وأرى – والله اعلم بمراده – أن المناسبة بين المغفرة والرحمة وبين القتل أو الموت فى سبيل الله ترجع إلى أن فعل الطاعات تؤدى إلى مغفرة الله ورحمته ، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ أن الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ**﴾ سورة هود: الآية ١١٤. ورأس الطاعات وذروة سنامها بعد الإيمان بالله ورسوله الجهاد فى سبيل الله بتقديم النفس دفاعاً عن دين الله، ومما يؤكد ذلك أن الحق سبحانه جعل غفران الذنوب وإدخال الجنات مرتباً على الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ أن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ سورة الصف: الآيات من ١٠– ١٢. فالمناسبة بين الجهاد فى سبيل الله بالنفس وبين المغفرة والرحمة ناجمة عن ترتب المغفرة والرحمة على أعلى درجات الطاعة.

وشبيه بالآية السابقة فى كون المغفرة والرحمة مرتبة على فعل الطاعات قوله تعالى: ﴿**لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا *دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ سورة النساء: الآيات من ٩٥ ، ٩٦.

فقد وعد الله سبحانه المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم درجات منه ومغفرة ورحمة جزاء لهم على ما قدموه من أعلى درجات الطاعة، فبطاعتهم كانوا أهلاً لمغفرة الله ورحمته.

ومن الآيات التى يخفى فيها وجه المناسبة فى التذييل بالمغفرة والرحمة قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن**

يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سورة النساء: الآية ١٠٠.

فى الآية ترغيب فى المهاجرة فى سبيل الله ووعد للمهاجرين بالأجر العظيم، سواء تحققت المهاجرة بالفعل أم ماتوا قبل أن يصلوا إلى مكان المهاجرة، ولما كان هناك فرق بين المهاجر بالفعل والمهاجر بالنية، وهذا ما يوهم أن من مات قبل وصوله إلى مكان الهجرة ليس له ثواب، أخبر الحق سبحانه بأن له ثواباً وأجراً بمجرد نيته وخروجه من بيته، وذيل ذلك بقوله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ أي يفغر له توانيه فى الهجرة إلى أن أدركه الموت؛ فربما كان توانيه تقصيراً منه، قال أبو السعود: "فغفر له من الذنوب التى من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج"(١).

وشبيه بالآيات السابقة قوله تعالى:﴿ **لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التوبة: الآية ٩١. فالآية تنفى الحرج والجناح على الضعفاء ومن على صفتهم فى تخلفهم عن الخروج إذا نصحوا لله والرسول ، فهم بنصحهم من جنس المحسنين، ولا حرج على المحسنين، وذيلت الآية بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ وهؤلاء من جنس المحسنين، والمغفرة تكون للمسىء لا للمحسن، وقد أجاب محمد بن أبى بكر الرزاى فى مسائله عن ذلك بقوله: "إن المحسن من الناس – وإن تناهى فى إحسانه – لا يخلو من إساءة بينه وبين الله تعالى أو بينه وبين الناس، لكنه إذا أحسن باجتناب الكبائر غفر الله صغائر سيئاته ورحمه"(٢).

وبالتأمل فى سياق الآية نجد أن أصحاب الأعذار الذين تخلفوا عن الخروج فى سبيل الله لشدة إيمانهم ورغبتهم فى الخروج ظنوا أنهم مؤاخذون بالقعود عن

---

(١) تفسير أبو السعود: ٥٧٥/١، ٥٧٦.

(٢) مسائل الرازى من غرائب آى التنزيل: ١٢٢.

الجهاد ، فجاء التذييل بالغفور الرحيم لإزالة هذا التوهم ، فالله سبحانه يغفر للمسيء فكيف لا يغفر لهم وهم من المحسنين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ سورة النساء: الآية ١٥٢، فقد ذيلت الآية بوصف الحق سبحانه بالغفور الرحيم، وما قبل التذييل حديث عن المؤمنين وما أعد لهم من أجر عظيم، فما وجه المناسبة بين التذييل بالغفور الرحيم وبين أجر المؤمنين الطائعين؟.

إذا تأملنا سياق الآية وجدنا أن ما قبلها حديث عن الكافرين المكذبين وما ينتظرهم من عقاب شديد، ثم ذكر فى مقابل هؤلاء الكفرة المؤمنون الطائعون وما أعد لهم من ثواب، فالتذييل بالمغفرة والرحمة جاء مقابلاً للوعيد بالعذاب الأليم للكافرين، تأمل ما قبل الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا *أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ سورة النساء: الآيتان ١٥٠، ١٥١. ثم ذكر عقب ذلك الذين آمنوا وما أعد لهم فى قوله:﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا ..** ﴾ الآية.

وشبيه بالآية السابقة قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التوبة: الآية ٩٩، فقد ذيلت الآية بالغفور الرحيم مع أنها تتحدث عن الأعراب المؤمنين وما أعد لهم من ثواب عظيم، ووجه المناسبة أن فى الآية وعداً لهم بالثواب العظيم عقب الوعيد للأعراب المنافقين وما ينتظرهم من عقاب، فوجه المناسبة هو الجمع بين الوعيد للمنافقين والوعد للمؤمنين، فقد سُبقت الآية بالحديث عن الأعراب المنافقين وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ سورة التوبة: الآية ٩٨. وجاء بعدها مباشرة الحديث

عن الأعراب المؤمنين وما اعد لهم من ثواب عظيم فى قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ ...** ﴾ الآية.

* * *

ومن الآيات التى تحتاج إلى تدقيق النظر للوصول إلى وجه المناسبة فى التعقيب بالمغفرة والرحمة قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ أن رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة هود: الآية ٤١.

فقد جاء قوله سبحانه: ﴿**... أن رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ تعليلاً لنجاتهم بالركوب فى السفينة ، فما وجه المناسبة بين التعليل بالمغفرة والرحمة للنجاة بركوب السفينة؟

قد نبه الفخر الرازى إلى وجه المناسبة وصاغ ذلك فى صورة سؤال وجواب وذلك فى قوله: "وفيه سؤال: وهو أن ذلك الوقت وقت الإهلاك وإظهار القهر ، فكيف يليق به هذا الذكر؟ وجوابه: لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا فى أنفسهم أنا إنما نجونا ببركة عملنا ، فالله سبحانه نبههم بهذا الكلام لإزالة ذلك العجب منهم، فإن الإنسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات الشهوات، وفى جميع الأحوال فهو محتاج إلى إعانة الله وفضله وإحسانه، وأن يكون رحيماً لعقوبته غفوراً لذنوبه"(١). فنجاتهم من الغرق لم يكن استحقاقاً منهم بسبب إيمانهم وإنما هو فضل وإحسان من الله، فهو الغفور الرحيم، ولا نجاة إلا بمغفرة الله ورحمته.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ أن اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة النحل: الآية ١٨. بعد أن ذكر الحق سبحانه بعض النعم التى أنعم بها على خلقه نبه سبحانه إلى أن نعمه غير متناهية، فلا يطاق حصرها فى عدّ ولو بصورة إجمالية فضلاً عن عد أفرادها. وقد ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿**... أن اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ فالسياق يتحدث عن وفرة نعم الله سبحانه التى لا تعد ولا تحصى، وليس فيه حديث عن ذنوب تغفر ومعاصٍ تستر، فما وجه المناسبة بين الحديث عن

(١) تفسير الفخر الرازى: المجلد الثامن/ ٥٣٢.

النعم والتعقيب بالمغفرة والرحمة؟ إذا دققنا النظر فى الآية الكريمة تكشف لنا وجه المناسبة، فالإنسان بطبيعته مقصر فى شكر الله على نعمه فضلاً عن تأدية الشكر كما ينبغى، وقد قال سبحانه: ﴿... **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ سورة سبأ: الآية ١٣.

فتقصيره عن الشكر وكفرانه بالنعم أدعى إلى عقابه بالحرمان، ولكن الله سبحانه لا يؤاخذ الناس بظلمهم ، فنعمه نازلة إلى عباده مع تفريطهم وتقصيرهم فى الشكر، لأنه سبحانه غفور رحيم ، قال سبحانه: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا** ﴾ سورة الكهف: الآية ٥٨. وقد كشف البقاعى عن هذا التوجيه فى قوله: "ولما كانوا مستحقين لسلب النعم بالإعراض عن التذكر والعمى عن التبصر أشار إلى سبب إدرارها فقال تعالى: ﴿... **أن اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ فلذلك هو يدر عليكم نعمه وانتم منهمكون فيما يوجب نقمه"(١)، وسنتحدث عن هذه الآية مرة أخرى عند الحديث عن اختلاف الفاصلتين والمحدث عنه واحد....

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ سورة الفرقان: الآية ٦.

الآية ترد على أباطيل الكافرين فى حق القرآن الكريم ، فقد ادعوا زوراً وبهتاناً أنه إفك وأساطير، فجاءت الآية لتثبت أنه حق محض أنزله الله سبحانه المحيط بكل شيء علماً، وقد ختمت الآية بقوله سبحانه:﴿..**إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ وقد كشف الزمخشرى عن وجه المناسبة فى الآية الكريمة وذلك فى قوله : "فإن قلت كيف طابق قوله :﴿...**إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ هذا المعنى؟ قلت: لما كان ما تقدمه فى معنى الوعيد عقّبة بما يدل على القدرة عليه، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً، ولكن صرف ذلك عنهم أنه غفور رحيم يمهل ولا

(١) نظم الدرر فى تناسب الآي والسور: ٢٥٦/٤.

يعاجل"[١]، والتوجيه الثانى هو الأقرب للسياق ، لأن هؤلاء قالوا ما قالوا فى حق القرآن ولما ينزل عليهم العذاب بعد، فعدم معاجلتهم بالعذاب ناجم عن مغفرة الله ورحمته، ولولا المغفرة والرحمة لصب عليهم العذاب صباً.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾ سورة سبأ: الآية ٢. تكشف الآية عن بعض ما يحيط به علم الله تعالى من أحوال ما فى الأرض وما فى السماء، ومن جملة أحوال ما فى الأرض أعمال العباد وما فيها من تفريط يؤدى بهم إلى العقاب، ولكن الله سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة لأنه رحيم غفور، فرحمته سبقت غضبه، وفى ذلك ترغيب فى التوبة والاستغفار ، قال ابن عاشور: "ولما كان من جملة أحوال ما فى الأرض أعمال الناس وأحوالهم من عقائد وسير، ومما يعرج فى السماء العمل الصالح والكلم الطيب أتبع ذلك بقوله:﴿**... وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾ أى الواسع الرحمة والواسع المغفرة، وهذا إجمال قصد منه حث الناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما، فإن من رغب فى تحصيل شيء بحث عن وسائل تحصيله وسعى إليها، وفيه تعريض بالمشركين أن يتوبوا عن الشرك فيغفر لهم ما قدموه"[٢]، ولنا مع هذه الآية وقفة أخرى عند الحديث عن ترتيب المغفرة والرحمة فى الذكر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ سورة فصلت: الآية ٣٢. النزل: ما أعد للضيف، استعير لما يتمناه أهل الجنة ويشتهونه، وقد وصف بأنه من عند غفور رحيم للإشارة إلى أن دخول الجنة والاستمتاع بألوان النعيم فيها لا يكون إلا برحمة الله ومغفرته ، فلا يدخل أحد الجنة بعمله.

* * *

(١) الكشاف: ٨٢/٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٣٨/٢٢.

اتضح مما سبق وجه مجيء المغفرة والرحمة فى سياق يبدو فى ظاهره عدم المناسبة، ولكن بالتأمل والتدقيق تظهر المناسبة، وعلى العكس من هذا قد وردت آيات تتحدث عن مغفرة الذنوب ولم يأت التعقيب بالغفور الرحيم – كما تقتضيه المناسبة الظاهرة – وإنما جاء التعقيب بصفات أخر لا تتضح المناسبة بينها وبين مغفرة الذنوب إلا بعد إطالة النظر وكثرة التأمل فى السياق.

من ذلك قوله تعالى: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ سورة المائدة: الآية ١١٨. فقد وقع الاسمان الجليلان ﴿**...فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ فى جملة الشرط، والمناسبة الظاهرة تقتضى أن يكون الجواب بما يدل على سعة المغفرة والرحمة، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة آل عمران : الآية ١٢٩. فغفران الذنوب يناسبه فى الظاهر ذكر الغفور الرحيم، ولكن آية المائدة ختمت بوصف الحق سبحانه بـ **(الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** ، لأن هذين الوصفين هما الأنسب لهذا السياق الذى يتحدث عن تفويض سيدنا عيسى – عليه السلام – أمر هؤلاء إلى الله سبحانه وإطلاق مشيئته، فهو سبحانه وحده القادر القوى على عقابهم وعلى ترك العقاب، ولا يقدر على ذلك إلا العزيز الذى لا نظير له، الحكيم الذى لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة، قال ابن أبى الأصبع فى وجه مجيء الفاصلة **(الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** دون (الغفور الرحيم): "فإن قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ...**﴾ ربما أوهم بعض الضعفاء أن الفاصلة لو كانت (غفوراً رحيماً) كانت أنسب لمكان ﴿**وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ...**﴾ ويذهل عن كونهم يستحقون العذاب دون الغفران، وأن قوله**(الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** بعد قوله ﴿**وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ...**﴾ أنسب؛ لأن من يغفر لمن يستحق العذاب إنما يكون من لا فوقه أحد يرد عليه حكمه، ومن كان كذلك كان عزيزاً ممتنعاً من الرد عليه، ومن كان حكيماً وضع الشيء فى موضعه، وإن كان

ظاهر فعله موهماً بأنه على خلاف الحكم، لخفاء وجه الحكمة بمكنون الغيب عن المخلوق القائم عن إدراك أسرار الربوبية"(١).

ونظيره قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ سورة الممتحنة: الآية ٥. فقد جاء التعليل بقوله: ﴿ **...إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ مع أن ما قبله دعاء بالمغفرة؛ لأن إجابة كل الدعوات السابقة يناسبها الوصف بالعزيز الغالب الذى لا يذل من أناب إليه، وبالحكيم الذى كل أفعاله متسمة بالحكمة وإن خفيت علينا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ سورة البقرة: الآية ٢٨٤. فقد جاء التذييل بقوله: ﴿... **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ مع أن ما قبله من ذكر المغفرة والرحمة يوهم أن يكون التذييل غفوراً رحيماً، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ سورة الفتح: الآية ١٤. ولكن عند إمعان النظر فى آية البقرة يتضح وجه التذييل بكون الله على كل شيء قديراً ، فالآية الكريمة تقرر حقائق فى وصف الحق سبحانه، فهى تقرر كمال ملك الله عز وجل، فله سبحانه ملك السماوات والأرض بما فيهما ومن فيهما وتقرر كمال علمه ، فالله سبحانه عليم بما يخفيه العباد وبما يظهرونه، فناسب كمال ملكه وكمال علمه أن يقرن بما يدل على كمال القدرة وذلك فى قوله: ﴿... **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

* * *

وشبيه بما سبق مجيء الغفور الرحيم فى موضع ومجيء غيرهما فى موضع آخر مع أن المحدث عنه فى الموضوعين واحد كما فى قوله تعالى: ﴿**وَآتَاكُم مِّن**

(١) تحرير التحبير: ٥٢٩، وينظر: فوائد فى مشكل القرآن: ١١٥، ١١٦.

كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ أن الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ سورة إبراهيم: الآية ٣٤. وقوله سبحانه: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ أن اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة النحل: الآية ١٨. فقد اختلفت الفاصلة فى الآيتين مع أن المحدث عنهما واحد وهو التنبيه على كثرة نعم الله وانها لا تحصى ولا تعد، فما السر فى مجيء آية إبراهيم بوصف الإنسان بشدة الظلم والكفر، ومجيء آية النحل بوصف الحق سبحانه بواسع المغفرة والرحمة؟.

بالتأمل فى سياق الآيتين يتبين وجه اختلاف الفاصلة فيهما، فآية إبراهيم سبقت بالحديث عن الذين كفروا بنعمة الله فلم يؤدوا حق النعمة وأشركوا مع الله غيره، فكان المناسب تعقيب هذه النعم الكثيرة بالتنصيص على قبيح صفاتهم وهو شدة الظلم والكفر.

أما آية النحل فقد جاءت بعد تعداد نعم الله سبحانه وتعالى، ولم تسبق بحديث عن أهل الكفر والضلال، فختمت الآيات بنعمة هى السبب فى كل هذه النعم السابقة، وهى وصف الحق سبحانه بعظيم المغفرة والرحمة، وقد أفصح أبو حيان عن هذا التوجيه بقوله: "والفرق بين الجملتين أنه هنا – أى فى سورة إبراهيم – تقدم قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا..**﴾ سورة إبراهيم : الآية ٢٨. وبعده ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ...**﴾ سورة إبراهيم: الآية ٣٠، فكان ذلك نصاً على ما فعلوه من القبائح من كفران النعم والظلم الذى هو الشرك بجعل الأنداد ، ناسب أن يختم بذم من وقع ذلك منه، فجاء ﴿**...إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ . وأما فى النحل فلما ذكر عدة تفضلات وأطنب فيها، وقال: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ..** ﴾ سورة النحل: الآية ١٧. أى من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق ولا على شيء منه، ذكر من تفضلاته اتصافه بالغفران والرحمة تحريضاً على الرجوع إليه سبحانه ، وأن هاتين الصفتين هو متصف بهما كما هو متصف بالخلق"(١).

---

(١) البحر المحيط: ٥/٤٢٨، ٤٢٩.

فسياق آية إبراهيم اقتضى التنصيص على صفات المنعم عليه بوصفه بشدة الظلم والكفر، فهو لا يؤدى حق النعمة ولا يحمد الله عليها.

وسياق آية النحل اقتضى التنصيص على صفتين من صفات وهاب النعم سبحانه وتعالى، وهما سعة المغفرة والرحمة، وهما السبب فى إسباغ النعم على العباد مع ظلمهم وجحودهم، فلولا مغفرة الله ورحمته لحرمهم من هذه النعم وصب عليهم العذاب صباً، قال الفخر الرازى: "قال القاضى ناصر الدين بن المنير فى تفسيره الكبير: كأنه يقول إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذى آخذها وأنا الذى أعطيها، فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلوما كفاراً، ولى وصفان عند إعطائها وهما: "كونى غفوراً رحيما"(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أو إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَن تَسْتَطِيعُوا أن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ سورة النساء: الآيتان ١٢٨، ١٢٩. فقد جاء جواب الشرط فى الآية الأولى ﴿**...فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ ، وجاء جواب الشرط فى الآية الثانية ﴿**...فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ مع أن الشرط فى الآيتين يدعو إلى حسن معاملة النساء واتقاء الله فيهن، فما السر فى اختلاف الجواب فيهما؟.

بالتأمل فى السياق ندرك اختصاص كل موضع بما ختم به، وان أحدهما لا يصلح مكان الآخر؛ فالآية الأولى تتحدث عن ترك الرجل زوجته وإعراضه عنها، وأنه يجوز أن يتصالحا فيما بينهما على ترك شيء من حقوق المرأة ، ثم نبه سبحانه إلى أن حسن العشرة والابتعاد عن النشوز والإعراض وعدم إجبار المرأة

(١) تفسير الفخر الرازي : المجلد التاسع، ٣٥٢.

على ترك شيء من حقوقها أولى وأفضل وأدعى للثواب، فالله سبحانه خبير بنياتكم فيجازيكم عليها. فجاء جواب الشرط ﴿...**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ لدعوتهم إلى الإخلاص فى الإحسان والتقوى، لأن الله خبير بنياتهم.

أما الآية الثانية فتتحدث عن استحالة تحقيق العدل من الرجل بين نسائه مع شدة حرصه على ذلك، لأن هناك أموراً لا يملكها الرجل ولا يتحكم فيها، ومنها الميل القلبى، فعلى الرجل أن يعدل فيما يملكه ، اما ما لا يملكه فالله سبحانه يغفر له فيه، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك". فجاء الجواب بوصف الحق سبحانه بالغفور الرحيم لحث الأزواج على العدل والإصلاح بين النساء فى الأمور التى فى وسعهم، أما الأمور التى فوق طاقتهم فالله سبحانه يغفرها لهم برحمته، وقد كشف الخطيب الإسكافى عن وجه اختلاف الفاصلة فى الآيتين بما هو قريب من هذا وذلك فى قوله: "فقد بان ووضح بما ذكرت وبينت أنه لما قال: أن جافيتم القبيح وآثرتم الإحسان فالله به عالم وعليه مجاز، وهذا قوله: ﴿...**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ ولما عذر الازواج فى بعض الميل وهو الذى لا يملكون خلافه، حثهم على ما يطيقون فعله بما ذكرت، وعلى إصلاح ما سلف منهم بما بينته ، فإن الله يغفر لمن يقلع منهم عن قبائحه ويؤثر بعدها الحسنى من أفعاله، وهذا قوله: ﴿...**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾(١).

ومن ذلك قوله: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾ سورة النساء: الآية ٢٢. وقوله سبحانه: ﴿...**وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ أن اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ سورة النساء: الآية ٢٣. فقد علل تحريم ما نكح الآباء بقوله: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾، وعلل تحريم الجمع بين الأختين فى النكاح بقوله: ﴿...**إِنَّ اللَّهَ كَانَ**

(١) درة التنزيل وغرة التأويل: /٦٠.

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، مع أن التعليل سبق باستثناء واحد فى الموضعين وهو قوله: ﴿**إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ ، فما وجه اختلاف التعليل فيهما؟.

إذا أمعنا النظر فى الآيتين وجدنا أن تحريم ما نكح الآباء تنوعت فيه صور المبالغة فى التحريم، فقد ذكر منفرداً منهياً عنه، ولم يذكر ضمن المحرمات من النساء، وبولغ فى التحريم بتعليقه على المحال على طريقة تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه، وذلك بالاستثناء المتصل فى قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ أى إلا من ماتت منهن فإنه يحل لكم نكاحها، وهذا مستحيل، قال الزمخشرى: "فإن قلت كيف استثنى ﴿**إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ مما نكح آباؤكم؟ قلت: كما استثنى: غير أن سيوفهم من قوله: ولا عيب فيهم، يعنى أن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه، فلا يحل لكم غيره ، وذلك غير ممكن، والغرض المبالغة فى تحريمه وسد الطريق إلى إباحته كما يعلق بالمحال فى التأبيد فى نحو قولهم حتى يبيض الفار، و﴿... **حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ...﴾ سورة الأعراف: الآية ٤٠[1]، ولما كان هذا النكاح مبالغاً فى تحريمه، لأنه أبشع صور المحرمات علل بما يفيد أنه بلغ الغاية فى القبح فقال سبحانه ﴿...**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾ حيث اجتمعت فيه جميع مراتب القبح...

أما تحريم الجمع بين الأختين فلم يكن على وجه المبالغة والتأكيد كسابقه، فقد سلك فى ضمن المحرمات من النساء ولم يذكر منفرداً، وجاء الاستثناء فيه منقطعاً للإشارة إلى أن ما مضى قبل نزول الآية لا مؤاخذة به فهو مغفور لهم، وجاء التعليل بوصف الحق سبحانه بالمغفرة والرحمة ليتناسب مع معنى الاستثناء المنقطع ويؤكد مغفرة ما مضى، قال أبو السعود: ﴿**إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ استثناء منقطع، أى لكن ما قد مضى لا تؤاخذون به ولا سبيل إلى جعله متصلاً بقصد التأكيد والمبالغة

---

(١) الكشاف: ٥١٥/١.

كما مر فيما سلف؛ لأن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ تعليل لما أفاده الاستثناء فيتحتم الانقطاع"[1].

وشبيه بالآيات السابقة قوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ سورة البقرة: الآيتان ٢٢٦، ٢٢٧ . تتحدث الآيتان عن حكم الإيلاء من الزوجة، والإيلاء هو أن يقسم الرجل على عدم جماع زوجه أربعة أشهر أو أكثر، وحكم الإيلاء إن رجع الزوج إلى زوجته بالوطء قبل انتهاء المدة المحددة حنث فى يمينه ولزمته كفارة اليمين، وإن مضت المدة وبر الزوج قسمه فلم يرجع إلى الزوجة بالجماع وقعت طلقة بائنة.

وقد جاء دليل جواب الشرط فى الفيء قوله تعالى: ﴿ **فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، وجاء دليل الجواب فى العزم على الطلاق قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

فما السر فى مجيء دليل الجواب فى الفيء بوصف الحق سبحانه بالغفور الرحيم، ومجيء دليل الجواب فى العزم على الطلاق بوصف الحق سبحانه بالسميع العليم؟

لعل السر فى ذلك – والله اعلم بمراده – أن فى الفيء حنثاً فى اليمين، والله سبحانه يغفر لهم حنثهم لأنه غفور رحيم.

أو لأن فى الفيء رجوعاً إلى المرأة وإحسانا إليها، فإذا رجع الرجل إلى زوجته وأحسن معاملتها رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة.

أما العزم على الطلاق فلكونه مبنيا على استمرار الإيلاء بعدم الحنث فى القسم، والإيلاء لفظ يسمع، ناسب سماع القسم وصف الحق سبحانه بأنه سميع ، وأردف ذلك بوصف الحق سبحانه بأنه عليم؛ لأن الإيلاء ليس صريحا فى الطلاق، فهو قبل

---

(١) تفسير ابى السعود: ٥٠٤/١.

انتهاء المدة ليس طلاقا، ولا يعد طلقة إلا بعد انتهاء المدة، فناسب ذلك الوصف بعليم؛ لأن الذى يطلع على نياتهم وغرضهم من الإيلاء هو العليم الذى يعلم السر وأخفى. قال ابن قيم الجوزية: "فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة والإحسان إليها بأنه غفور رحيم، يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل، فكما رجع إلى التى هى أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة. ﴿**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾، فإن الطلاق لما كان لفظا يسمع ومعنى يقصد عقبه باسم "السميع" للنطق به، "العليم" بمضمونه(١).

وقد كشف الزمخشرى عن وجه المناسبة بين الختم بالسميع والعزم على الطلاق، مع أن العزم أمر معنوى يعلم ولا يسمع، فالمناسبة ظاهرة بين العزم والعلم. أما المناسبة بين العزم والسمع فهى غير ظاهرة. وذلك فى قوله: "فإن قلت ما تقول فى قوله "فإن الله سميع عليم" وعزمهم الطلاق مما يعلم ولا يسمع؟

قلت: "الغالب أن العازم للطلاق وترك الفيئة والضرار لا يخلو من مقاولة ودمدمة، ولا بد له من أن يحدث نفسه ويناجيها بذلك، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله كما يسمع وسوسة الشيطان"(٢).

* * *

(١) جلاء الأفهام: /٩٤.

(٢) الكشاف: ١/٣٦٤، ٣٦٥.

٤- مقامات اقتران الرأفة بالرحمة

اقترنت الرأفة بالرحمة فى القرآن الكريم فى تسعة مواضع، جاء سبعة منها فى الإخبار عن الحق سبحانه بالرءوف الرحيم، وجاء موضع فى وصف سيدنا محمد ﷺ بأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين، وجاء موضع فى وصف أتباع سيدنا عيسى عليه السلام بأن جعل الله سبحانه فى قلوبهم رأفة ورحمة.

والمتأمل فى هذه المواضع يجد أنها جاءت كلها فى مقامات تتناسب وتتلائم مع اقتران الاتصاف بهاتين الصفتين.

ففى مقام الإخبار عن الحق سبحانه وتعالى يأتى التعبير بهما لإفادة التعليل للكلام السابق وتقرير تحقق وقوعه، فهو من باب إقامة البينة والحجة على ما قرر من أحكام، فالله سبحانه شرع لهم ما شرع لتحقيق المصلحة وجلب الخير والمنفعة.

تأمل قوله الله تعالى فى سياق الحديث عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة: ﴿...**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ أن اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾، سورة البقرة: الآية ١٤٣.

تجد أن التذييل بالإخبار عن الحق سبحانه بهذين الوصفين عقب الإخبار بأن الله سبحانه لا يضيع ثواب إيمانهم أو صلاتهم إلى القبلة المحول عنها لأنه عز وجل رءوف رحيم ، يشرع لهم ما فيه صلاحهم وجلب الخير لهم. روى البخارى عن البراء بن عازب الأنصارى: "أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى:﴿ ...**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ...﴾ (١).

قال أبو حيان فى بيان علاقة التذييل بالرءوف الرحيم بما قبله: "قوله تعالى: ﴿...**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾، ختم هذه الآية بهذه الجملة ظاهر، وهى

---

(١) فتح البارى: لابن حجر العسقلانى. كتاب الإيمان – باب الصلاة من الإيمان – ، ٩٠/١، ط. لجنة إحياء التراث الإسلامى.

جارية مجرى التعليل لما قبلها، أى للطف رأفته وسعة رحمته نقلكم من شرع إلى شرع أصلح لكم وأنفع فى الدين، أو لم يجعل بها مشقة على الذين هداهم، أولا يضيع إيمان من آمن، وهذا الأخير أظهر"(١).

وفى مقام عدم معاجلة الخلق بالعذاب، وذلك بإمهالهم، يأتى التذييل بوصف الحق سبحانه بالرءوف الرحيم للتعليل على عدم تعجيل إهلاكهم؛ لأن إمهالهم وعدم مؤاخذتهم بكفرهم يناسبه الوصف بالرأفة والرحمة، تأمل قوله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ *أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ *أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، سورة النحل: الآيات ٤٥ – ٤٧.

قال ابو حيان : "ولما كان تعالى قادراً على هذه الأمور ولم يعاجلهم بها ناسب وصفه بالرأفة والرحمة"(٢).

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة النور: الآيتان ١٩، ٢٠. هذه الآية ختام الآيات العشر التى نزلت فى حديث الإفك والبهتان الذى أفك على أم المؤمنين السيدة عائشة – رضى الله عنها – وجاء الختام بوصف الحق سبحانه بأنه رءوف رحيم ليفيد أن الله سبحانه لم يعاجل هؤلاء الخائضين بالعقاب مع عظم ما اقترفوه تفضلاً منه سبحانه عليهم ورأفة ورحمة بهم.

قال الطاهر بن عاشور: "وذكر هنا بأنه رءوف رحيم لأن هذا التنبيه الذى تضمنه التذييل فيه انتشال للأمة من اضطراب عظيم فى أخلاقها وآدابها وانفصام عرى وحدتها، فأنقذها من ذلك رأفة ورحمة لآحادها وجماعتها وحفظا لأواصرها. وذكر وصف الرأفة والرحمة هنا لأنه قد تقدمه إنقاذه إياهم من سوء محبة أن تشيع

---

(١) البحر المحيط: ٦٠١/١.

(٢) المصدر السابق: ٤٨٠/٥.

الفاحشة فى الذين آمنوا تلك المحبة التى انطوت عليها ضمائر المنافقين كان إنقاذ المؤمنين من التخلق بها رأفة بهم من العذاب ورحمة لهم بثواب المتاب"(١).

وقد جاء التذييل بالتواب الحكيم فى ختام الحديث عن اللعان وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَن غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ*وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**﴾ ، سورة النور : الآيات ٨- ١٠. فما السر فى تعقيب الحديث عن اللعان بوصف الحق سبحانه بالتواب الحكيم، ولم يعقب بالرءوف الرحيم كما جاء فى ختام حديث الإفك؟ أجاب عن هذا الألوسى فى قوله: "وهذه نظير الآية المارة فى آخر حديث اللعان، إلا أن فى التعقيب بالرءوف الرحيم بدل التواب الحكيم هنالك ما يؤذن بأن الذنب فى هذا أعظم، وكأنه لا يرتفع إلا بمحض رأفته تعالى وهو أعظم من أن يرتفع بالتوبة، كما روى عن ابن عباس "من خاض فى حديث الإفك وتاب لم تقبل توبته" والغرض التغليظ فلا تغفل"(٢).

واقتران التواب بالحكيم فى آية اللعان دون الرحيم ، مع أن المتبادر إلى الذهن أن يقترن بالرحيم؛ لأن المناسب للتوبة الرحمة وذلك لأن المقصود بيان الحكمة فى مشروعية اللعان وهى التستر على هذه الفاحشة وعلى من يفعلها. قال الزركشي فى تعليله للتعبير بالتواب الحكيم دون التواب الرحيم: "فإن الذى يظهر فى أول النظر أن الفاصلة "تواب رحيم"، لأن الرحمة مناسبة للتوبة وخصوصاً من هذا الذنب العظيم؛ ولكن هاهنا معنى دقيق من اجله قال :"حكيم" ؛ وهو أن ينبه على فائدة مشروعية اللعان، وهى التستر عن هذه الفاحشة العظيمة؛ وذلك من عظم الحكم، فلهذا كان "حكيم" بليغاً فى هذا المقام دون "رحيم"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير: م/ ٩ جـ ١٨٦/١٨.

(٢) روح المعانى: م/ ١٠ جـ ١٨٢/١٨.

(٣) البرهان: ٩١/١.

وفى مقام التعليل لإسباغ نعم الله على العباد، والتخفيف عليهم بتيسير ما فيه مشقة نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ *وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ أن رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾، سورة النحل: الآيات ٥ – ٧، حيث عددت الآيات المنافع المتحققة عن طريق خلق الأنعام، ثم ذيلت بوصف الحق سبحانه بالرءوف الرحيم تعليلاً لتحقق هذه المنافع، لأنه سبحانه عظيم الرأفة والرحمة بهم. قال أبو السعود "إن ربكم لرءوف رحيم"، وذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الأمور الشاقة"(١).

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أن اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ أن اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾، سورة الحج، الآية ٦٥، فقد عددت الآية بعض النعم التى يسر الله سبحانه الانتفاع بها فى البر والبحر والجو من دواب وأشجار وانهار وبحار تجرى فيها الفلك، ومن إمساك السماء وما فيها من شمس وقمر وكواكب؛ حيث سخر سبحانه لهم ما سخر من هذه النعم لأنه سبحانه رءوف رحيم بهم. قال الزركشى: "وإنما فصل بـ " **رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** " لأنه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما فى الأرض لهم، وإجراء الفلك فى البحر لهم، وتسييرهم فى ذلك الهول العظيم، وجعله السماء فوقهم وإمساكه إياها عن الوقوع، حسن ختامه بالرأفة والرحمة"(٢).

وفى مقام التعليل للعفو وقبول التوبة نقرأ قوله تعالى: ﴿**لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، سورة التوبة: الآية ١١٧، نزلت الآية فى غزوة تبوك، تلك الغزوة التى سميت بغزوة العسرة، حيث

(١) تفسير أبى السعود: ٢٤٧/٣.
(٢) البرهان: ٨١/١.

اجتمع على المسلمين كثير من الشدائد، شدة من الظهر وشدة من الزاد وشدة من الماء وشدة زمان من حمارة القيظ.

والمراد بتوبة الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة "أن الله لا يؤاخذهم بما قد يحسبون انه يسبب مؤاخذة ، كقول النبي ﷺ: "لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: " إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"(١).

وذيلت الآية بوصف الحق سبحانه بالرءوف الرحيم لأنه أنسب لما قاسوه من شدائد ومصاعب، بحيث أن فريقا منهم كادت تزيغ قلوبهم، قال أبو السعود: " **إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** " استئناف تعليلى؛ فإن صفة الرأفة والرحمة من دواعى التوبة والعفو، ويجوز أن يكون الأول عبارة عن إزالة الضرر والثانى عن إيصال المنفعة، وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق"(٢).

وقد جاء بعد هذه الآية مباشرة آية الثلاثة الذين أخر أمرهم ، فلم يقض فى شأنهم إلى أن نزلت الآية بقبول توبتهم، وذيلت هذه الآية بوصف الحق سبحانه بالتواب الرحيم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ أَن اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾، سورة التوبة: الآية ١١٨، والسؤال؟ ما السر فى تذييل هذه الآية بالتواب الرحيم؟ ولماذا لم تذيل بالرءوف الرحيم كالتى قبلها؟.

والجواب – والله اعلم بمراده – أن هؤلاء الثلاثة أمرهم مختلف عن السابقين فى الآية التى قبلها، فهؤلاء الثلاثة تخلفوا عن هذه الغزوة بدون عذر، واعترفوا بعدم وجود عذر فى التخلف، فأخر الرسول ﷺ القضاء فى أمرهم إلى أن نزل الوحى بقبول توبتهم، فهؤلاء أذنبوا فعلاً، ثم وفقهم الله سبحانه للتوبة فتابوا وقبل الله توبتهم، والأنسب لتوفيق التائب إلى التوبة فيتوب وتقبل توبته التذييل

(١) التحرير والتنوير: م/٦، جـ ١١/٤٩.
(٢) تفسير أبى السعود: ٢/٤٥٥.

بصفتى التواب الرحيم؛ لأنه سبحانه متصف بالمبالغة فى قبول التوبة مهما عظمت الذنوب.

ومما يؤكد هذا التوجيه أن آية الثلاثة الذين خلفوا ذكر فيها قوله تعالى: " **لِيَتُوبُوا** " زيادة عما فى الآية الأولى فقال سبحانه: " **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** ". أما فى الآية التى قبلها التى تحدثت عن توبة الذين اتبعوه فى ساعة العسرة فلم تأت جملة "ليتوبوا"؛ لأنه لم يكن منهم فى هذه الغزوة ذنب ليتوبوا منه.

ومما يؤكد هذا أيضا أن آية الذين اتبعوه فى ساعة العسرة جاءت الرأفة والرحمة فيها مقيدة بالجار والمجرور "بهم" فقال سبحانه: " **إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** "، وجاءت آية الثلاثة الذين خلفوا مطلقة لتشمل هؤلاء الثلاثة وغيرهم من المذنبين التائبين، فقال سبحانه: " **أن اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ".

ومن مقامات التذييل بالرءوف الرحيم ختم الدعاء بأسماء الله الحسنى التى تناسب مطلوب الداعى، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ ، سورة الحشر: الآية ١٠.

المراد بالذين جاءوا من بعدهم على أرجح الآراء هم المؤمنون الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار إلى أن تقوم الساعة، وقد وصفهم الحق سبحانه بمحبتهم للذين سبقوهم بالإيمان من المهاجرين والأنصار، حيث يدعون لهم بالمغفرة، ويدعون لأنفسهم بانطواء قلوبهم على محبتهم وانتفاء الحسد والبغض لهم، ثم ختموا الدعاء باسمين من أسماء الله الحسنى يناسبان الدعاء المطلوب، وهما: " **رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**"، فالرأفة تناسب خلو القلوب من البغض والحسد، والرحمة تناسب الدعاء بالمغفرة؛ لأن الرحمة سبب المغفرة، وهذا أدعى للإجابة؛ لأنه توسل إلى الله سبحانه بصفاته.

٥ - ترتيب المغفرة والرحمة فى الذكر

ترتيب الكلمات فى الذكر يأتى على وفق ترتيب المعاني فى النفس، فالكلمة تذكر قبل الأخرى لأن السياق يقتضى تقديمها دون الأخرى، فتقديمها أهم وأعنى فى هذا السياق.

وهذا النوع من التقديم ليس مبنياً على الرتبة النحوية للكلمة، ولكنه تقديم أحد الألفاظ المقترنة على الأخرى، وتقديم إحدى الصفات المتواردة على بقية الصفات، وهذا النوع من التقديم هو ما عناه ابن الأثير بقوله: "والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لما تغير المعنى[١]، والمراد بعدم تغيير المعنى عند تأخر الكلمة عدم تغيير أصل المعنى أو المعنى الأول ، أما صورة المعنى وهيئته أو المعنى الثانى فلا بد من حدوث تغيير فيه عند تأخير الكلمة.

وقد ذكر العلماء والمفسرون أسباباً كثيرة لهذا النوع من التقديم وصلت عند الزركشى إلى خمسة وعشرين سبباً[٢]، والذى يعنينا فى مقامنا هذا هو الحديث عن ترتيب المغفرة والرحمة فى الذكر.

وبالتأمل فى حديث القرآن الكريم عن المغفرة والرحمة وجد أن المغفرة قدمت على الرحمة فى معظم المواضع التى اجتمع فيها اللفظان إلا فى موضعين، الأول: تقديم "يرحم" على "يغفر" فى قوله تعالى على لسان قوم موسى: ﴿**وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٤٩. والثانى تقديم "الرحيم" على "الغفور" فى قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾ سورة سبأ : الآية ٢.

---

(١) المثل السائر: ٣٨٤/٢.

(٢) ينظر: البرهان: ٢٣/١/٣.

وقد كشف السهيلى عن السرّ فى تقديم المغفرة على الرحمة فى معظم المواضع بأن تحقق المغفرة أولى واهم من تحقق الرحمة، لأن دفع الضرر أولى من جلب النفع، وذلك فى قوله: "وأما تقديم "الغفور" على "الرحيم" فهو أولى بالطبع، لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، ألا ترى لقوله عليه السلام لعمرو بن العاص– رضى الله عنه – "أبعثك وجهاً يسلمك الله تعالى ويغنمك، وأرغب لك رغبة من المال " فهذا من الترتيب البديع، بدأ بالسلامة قبل الغنيمة، وبالغنيمة قبل الكسب، والعطية، الأولى من التقدم بالطبع، والثانية من التقدم بالسبب"(١).

وأرى – والله أعلم بمراده – أن السر فى تقديم المغفرة على الرحمة فى معظم المواضع هو أن الرحمة تعليل للمغفرة وسبب فى تحققها، فالله سبحانه يغفر ذنوب عباده لأنه سبحانه واسع الرحمة ، ومن رحمته غفران الذنوب، وقد جاء ذلك صريحاً فى قوله تعالى: ﴿**...كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة الأنعام: الآية ٥٤. وقوله تعالى: ﴿**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ سورة غافر: الآية ٩.

* * *

وأما تقديم الرحمة على المغفرة فقد جاء ذلك فى موضعين فقط، ولكل موضع أسبابه ودواعيه، ونبدأ بالتقديم فى قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٤٩.

(١) نتائج الفكر فى النحو: /٢١٢، ٢١٣.

تصور الآية الكريمة شدة ندم قوم موسى على عبادتهم العجل بعد أن تيقنوا من ضلالتهم، وقد علقوا وقوعهم فى الخسران المبين على عدم رحمة الله بهم وغفرانه لضلالتهم، وأكدوا ذلك بالقسم، فشرط النجاة من الخسران المبين تحقق رحمة الله ومغفرته، وقد قدموا فعل الرحمة على فعل المغفرة خروجاً على الأصل فى كل آيات الدعاء من تقديم طلب المغفرة على طلب الرحمة، وفى بيان سر هذا التقديم قال أبو السعود: "وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي، وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم، وهو مبتدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم"(١).

وأرى – والله اعلم بمراده – أن السر فى تقديم الرحمة على المغفرة فى هذا الموضع هو شدة إحساسهم بعظم جرمهم، فقد أشركوا بالله باتخاذهم العجل إلهاً من دونه مع أنهم صنعوه بأيديهم من حليهم، وهذا يدل على سفاهة عقولهم، فقد عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، قال تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**﴾ سورة الأعراف: الآية ١٤٨. هذا الإشراك بالله الذى لا يعادله جرم لا يتوقع مغفرته، فقد قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ سورة النساء: الآية ٤٨. فلما كان غفران هذا الجرم العظيم غير متوقع ناسَبهُ تقديم الرحمة التى لولاها ما غفر لهم جرمهم.

* * *

(١) تفسير أبى السعود: ٢٩٨/٢.

أما تقديم الرحيم على الغفور فى قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾ سورة سبأ: الآية ٢. فقد ذهب الشهاب الخفاجى إلى أن السر فى التقديم هو أن الرحمة سبب المغفرة، أو أن التقديم لأجل الفاصلة، وذلك فى قوله: "قدم الرحمة لأنها منشأ المغفرة، أو للفاصلة"(١).

والتعليل الأول مردود عليه بأن الرحمة سبب المغفرة فى كل المواضع سواء تقدمت المغفرة أم تأخرت، فكيف يكون هذا تعليلاً لتقديم الرحمة هنا؟.

والتعليل الثانى مردود عليه بان الرحمة قدمت على المغفرة فى آية الأعراف السابقة وليست المغفرة فيها فاصلة.

ومما يؤكد أن التقديم ليس مراعاة للفاصلة أن الغفور قدم على الرحيم فى سورة الحجرات مع أن الفاصلة على حرف الراء، ولو كانت الفاصلة هى الغرض من التقديم لقدم الرحيم على الغفور، اقرأ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ أَن أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ أَن اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ أَن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة الحجرات: الآيتان ١٣، ١٤. فالفاصلة فى الآية الأولى على حرف الراء، ولو كان التقديم مراعاة للفاصلة لقدم الرحيم على الغفور فى الآية الثانية.

ومع التسليم بمكانة الانسجام الصوتى الناجم عن توافق الفواصل وبماله من أثر فى تمكين المعنى فى النفس ، إلا أنه لا يمكن التسليم بأن التقديم والتأخير فى القرآن الكريم يكون لتحقيق فائدة لفظية فقط، فبلاغة القرآن أعظم درجة وأعلى

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى: ١٨٧/٩.

منزلة من أن تقف عند تحقيق أمر لفظى فقط، ولا مانع من تحقيق الانسجام الصوتى مع تحقيق الغرض المعنوى الذى هو الأساس والمقصد من نظم الكلام على خاصية معينة.

وقد أنكر الزمخشرى فى كشافه القديم أن يكون بناء الكلام وترتيب ألفاظه لمجرد تحقيق غرض لفظى فقط، أنكر ذلك فيما نقله عنه الزركشى: "لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعانى على سدادها، على النهج الذى يقتضيه حسن النظم والتئامه، كما لا يحسن تخير الألفاظ المونقة فى السمع، السّلسة على اللسان، إلا مع مجيئها منقادة للمعانى الصحيحة المنتظمة؛ فأما أن تهمل المعانى ويهتم بتحسين اللفظ وحده، غير منظور فيه إلى مؤداه على بال، فليس من البلاغة فى فتيل أو نقير"(١).

اتضح مما سبق أن تقديم الرحيم على الغفور ليس مراعاة للفاصلة، وإنما التقديم يحقق فى الكلام فائدة معنوية، وهى أن التقديم أنسب لسياق الكلام.

وقد كشف السهيلى عن السر فى تقديم الرحيم على الغفور بأنه من قبيل التقديم بالفضل والكمال، أو تقديم العام على الخاص، وذلك فى قوله: "وأما قوله (وهو الرحيم الغفور) فى سبأ فالرحمة متقدمة على المغفرة إما بالفضل والكمال، وإما بالطبع لأنها منتظمة بذكر أوصاف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان ، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص، كقوله تعالى: ﴿...**فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** ﴾ سورة الرحمن : الآية ٦٨. وكقوله: ﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**﴾ سورة البقرة: ٩٨. افتتح بالعموم الذى هو متقدم بالطبع على الخصوص"(٢).

---

(١) البرهان: ٧٢/١.

(٢) نتائج الفكر: /٢١٣.

والتعليل الأول مردود عليه بان الغفور قُدم على الرحيم فى كل المواضع، فلم لم تراع الأفضلية والكمال فى كل المواضع فيقدم الرحيم على الغفور.

أما التعليل الثانى فهو مبنى على تأمل السياق والوقوف على ما يقتضيه المقام، وهو تعليل حسن يتناسب مع مقام الحديث عن علم الله بكل الموجودات فى السماء والأرض، وهذه الموجودات على اختلاف أجناسها تشملها رحمة الله التى وسعت كل شيء، ولهذا قدمت الرحمة على المغفرة لأن المغفرة خاصة بالمكلفين من الموجودات، أما الرحمة فتشمل المكلفين وغيرهم، والسياق سياق الحديث عن كل الموجودات فناسبه تقديم الرحمة التى تشمل الموجودات جميعاً.

ولم يرتض ابن القيم تعليل السهيلى، ويرى أن السر فى التقديم هو اقتران الرحمة بالعلم، لأنهما يقترنان فى القرآن الكريم، وهذا قوله "فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمه ومغفرته، وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة، قال سبحانه: ﴿...**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا** ...﴾ سورة غافر: الآية ٧. وقدم الرحيم فى هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به ليطابق قوله ﴿...**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا** ...﴾[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد: ١/٨٠ بتصرف قليل.

٦- ترتيب الرأفة والرحمة فى الذكر

جاءت الرأفة مقدمة على الرحمة فى كل المواضع التى اقترن فيها اللفظان فى القرآن الكريم، ولعل السر فى تقديم الرأفة على الرحمة دائماً هو أن تحقق الرأفة أولى عند المخاطبين واهم من تحقق الرحمة؛ لأن الرأفة هى إزالة الضرر، والرحمة هى إيصال المنفعة، وإزالة الضرر أولى واهم عند المخاطبين من إيصال المنفعة ، قال الألوسى: "وقد يقال تقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار، وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع، والأول أهم من الثانى، ولهذا قدمت فى قوله سبحانه : ﴿..رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا..﴾ (١).

والرأفة تدل على التلطف واللين والمعاملة برفق وشفقة، وفى هذا تأنيس للمخاطب وإزالة ما به من مشاق، والرحمة تدل على الإنعام، وتأنيس المخاطب مقدم على إيصال المنفعة إليه، قال الشهاب الخفاجى: "الرأفة معناها الشفقة واللطف، والرحمة الإنعام، ورتبتها – أى الرأفة – التقديم، كما قيل: "الإيناس قبل الإبساس"(٢).

وذهب كثير من العلماء إلى أن الرأفة قدمت على الرحمة للمحافظة على الفاصلة، ولولا المحافظة على الفاصلة لقدمت الرحمة على الرأفة؛ لأن الرأفة عندهم أبلغ من الرحمة، والقياس تقديم الأدنى – وهو الرحمة – ليكون للترقى من إثبات الأدنى – وهو الرحمة – إلى إثبات الأعلى – وهو الرأفة – فائدة، أما الترقى من إثبات الأعلى إلى إثبات الأدنى فهو نوع من التكرار غير مفيد؛ لأن حصول الأعلى يدل على حصول الأدنى، فذكر الأدنى بعد الأعلى لا حاجة إليه للعلم به.

---

(١) روح المعانى: م/٧، جـ ٧٦/١١.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى: ٢٥٣/٢.

قال أبو هلال العسكرى: "الرأفة أبلغ من الرحمة، ولهذا قال أبو عبيده: "إن فى قوله تعالى: رءوف رحيم" تقديماً وتأخيراً "أراد أن التوكيد يكون فى الأبلغ فى المعنى، فإذا تقدم الأبلغ فى اللفظ كان المعنى مؤخراً"(١).

وممن ذهب إلى هذا القاضى البيضاوى فى قوله: "ولعله قدم الرءوف – وهو أبلغ – محافظة على الفواصل"(٢).

وذهب إلى هذا أيضا أبو حيان فى قوله: "وتأخر الوصف بالرحمة لكونه فاصلة"(٣).

وذهب إلى هذا أيضا الطاهر بن عاشور فى قوله: "وتقديم "رءوف" ليقع لفظ "رحيم" فاصلة فيكون أنسب بفواصل هذه السورة"(٤).

وهذه الأقوال التى أرجعت فائدة تقديم الرأفة على الرحمة إلى المحافظة على الفاصلة مردود عليها بأمرين.

الأمر الأول: أن الرأفة قدمت على الرحمة فى سورة الحديد فى قوله تعالى: ﴿...**وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً**...﴾ سورة الحديد: الآية ٢٧. ولم تقع الرحمة فاصلة ، حيث وقعت فى وسط الآية.

الأمر الثانى: ما ذكرناه من قبل عند الحديث عن تقديم الرحيم على الغفور من أنه لا يليق بسمو بلاغة القرآن الكريم أن يكون بناء النظم فيه لتحقيق فائدة لفظية فقط؛ بل لا بد أن يكون مقتضى هذا النظم تحقيق فائدة معنوية، ولا مانع من تحقيق فائدة لفظية مع الفائدة المعنوية، قال الزركشى:" قوله تعالى: ﴿...**وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ سورة البقرة: الآية ٤، وقوله تعالى: ﴿...**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ البقرة: الآية ٣،

---

(١) الفروق اللغوية: /١٦.

(٢) تفسير البيضاوى: هامش على حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوى، ٤٥٢/١.

(٣) البحر المحيط: ٦٠/١.

(٤) التحرير والتنوير: م/٢، جـ ٢٦/٢.

لا يتأتى فيه ترك رعاية التناسب فى العطف بين الجمل الفعلية إيثاراً للفاصلة – لأن ذلك أمر لفظى لا طائل تحته – وإنما عدل إلى هذا لقصد الاختصاص"[١].

فقد أرجع الزركشى تقديم الجار والمجرور " **وَبِالْآخِرَةِ**" و " **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**" على الفعلين "**يُوقِنُونَ** " و " **يُنفِقُونَ**" لتحقيق فائدة معنوية وهى التخصيص، ورفض أن يكون العدول عن التناسب بين المعطوفات فى الجملة الفعلية بتقديم الجار والمجرور لأجل المحافظة على الفاصلة وهى النون.

وقد أفصح الشهاب الخفاجى عن السر فى تقديم الرأفة على الرحمة، وأبطل القول بان التقديم للمحافظة على الفاصلة ، وذلك فى قوله: "الرأفة حيث قارنت الرحمة قدمت سواء الفواصل وغيرها، ألا تراها قدمت فى قوله "رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها" وهى فى الوسط، فلا بد لتقديمها من وجه آخر ، وكونها أبلغ لا وجه لها، وإن تفرد به الجوهرى، فقد فصلت فى العين والمجمل وغيرهما بمطلق الرحمة، وهى عند التحقيق نوع من الرحمة الحقيقية، وهو التلطف والمعاملة برفق وشفقة، ويقابلها العنف والتجبر، فينبغى تقديمها على الرحمة بمعنى الإنعام، كما فى المثل: الإيناس قبل الإيساس، وقال:

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله"[٢]

---

(١) البرهان: ٧٢/١.

(٢) حاشية الشهاب: ٣٥٥/٦.

٧ - خصائص نظم اقتران المغفرة والرحمة

يحاول هذا المبحث الكشف عن الخاصية البلاغية التى وردت عليها المغفرة والرحمة عند اقترانهما، فيكشف عن دلالة الصيغة فى الكلمتين، ويتحدث عن التأكيد ومقاماته.

صيغة المغفرة والرحمة:

من المعروف أن صيغة الكلمة لها دخل كبير فى دلالتها، فكما تدل الكلمة بمعناها الوضعى تدل أيضا بالصيغة التى بنيت عليها. وبالتأمل فى لفظى المغفرة والرحمة عند اجتماعهما فى القرآن الكريم وجد أنهما وردا على ثلاث صيغ:

صيغة المصدر – صيغة الفعل – صيغة المبالغة:

١- صيغة المصدر:

جاءت المغفرة والرحمة على صيغة المصدر فى القرآن الكريم منفصلتين فى مواطن كثيرة، ولم تأتيا مقترنين إلا فى موضعين:

الأول: فى سورة آل عمران فى قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَو مُّتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ الآية ١٥٧.

الثانى: فى سورة النساء فى قوله تعالى: ﴿**دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ سورة النساء: الآية ٩٦.

وفى الموضعين تقدمت المغفرة على الرحمة لم سبق التعليل به من أن دفع الضرر مقدم على جلب النفع، وجاء اللفظان نكرتين للدلالة على التعظيم والتفخيم، فمغفرة الله ورحمته لا يدرك كنهها ولا يقدر قدرها، وأكد هذا التفخيم وصفهما بأنهما من الله سبحانه ﴿**لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ**﴾ أى ورحمة منه، ﴿**دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً**﴾ أى مغفرة منه ورحمة، بحذف الصفة لدلالة المذكور عليها، وناهيك بمغفرة الله ورحمته، فهما على درجة فى الفخامة يستحيل أن تقارن بهما مغفرة البشر ورحمتهم.

وأفاد التنكير – بالإضافة إلى التفخيم والتعظيم – التقليل، فشيء قليل من مغفرة الله ورحمته خير من الدنيا وما فيها.

وقد وقعت جملة ﴿**لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ**﴾ جواباً للقسم فى قوله ﴿**وَلَئِن قُتِلْتُمْ**...﴾ وقد سد جواب القسم مسد جواب الشرط، وفى تصدير الجملة بالقسم تأكيد لما وعد الله به المؤمنين من المغفرة والرحمة أن قتلوا أو ماتوا فى سبيل الله ، وفى ذلك ترغيب لهم فى الجهاد وطمأنة لنفوسهم.

وجاء الشرط فى قوله " **وَلَئِن**" بـ " إن" دون " إذا " مع أن القتل أو الموت أمر محقق الوقوع لأن تقييد القتل أو الموت بكونهما فى سبيل الله جعلهما من الأمور النادرة قليلة الحدوث فالقتلى والموتى كثيرون ولكن الذين يقتلون أو يموتون فى سبيل الله فئة قليلة وفى ذلك حث لهم على نيل شرف الشهادة.

وفى قوله تعالى: ﴿**دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ وقعت الدرجات والمغفرة والرحمة بدلاً من "أجراً" فى قوله تعالى: ﴿**...وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ سورة النساء : الآية ٩٥. وفى البدل تفصيل بعد إجمال وتوضيح بعد إبهام ، وفى ذلك تأكيد لمنزلة المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وتعظيم للجهاد وحث عليه، ثم ذيلت الآية بقوله: ﴿**... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ لتقرير ما وعد الله به من المغفرة والرحمة.

٢- صيغة الفعل:

اقترنت المغفرة بالرحمة بصيغة الفعل ثمانى مرات، خمساً فى مقام الدعاء ، وثلاثاً فى مقام الاعتراف بالذنب وتعليق الوقوع فى الخسران على عدم تحقق مغفرة الله ورحمته.

ففى مقام الدعاء نقرا قوله تعالى فى خواتيم سورة البقرة: ﴿**...رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا أن نَّسِينَا أو أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا**...﴾ سورة البقرة:

الآية ٢٨٦. ولم يأت الدعاء بالعفو والمغفرة والرحمة مصدراً بالنداء **(رَبَّنَا)** كما جاء فى الدعوات السابقة، "لأن تلك الدعوات المقترنة بقوله **(رَبَّنَا)** فروع لهذه الدعوات الثلاث ، فإذا استجيبت تلك حصلت إجابة هذه بالأولى؛ فإن العفو أصل لعدم المؤاخذة ، والمغفرة أصل لرفع المشقة، والرحمة أصل لعدم العقوبة الدنيوية والأخروية، فلما كان تعميماً بعد تخصيص كان كأنه دعاء واحد"(١).

والملاحظ فى آيات الدعاء تقديم الدعاء بالمغفرة على الدعاء بالرحمة جرياً على الأصل والغالب لما سبق من أن دفع الضرر مقدم على جلب النفع ، والملاحظ أيضا تذييل الدعاء بما يقتضى حصول المدعو به ، وهذا من باب التوسل إلى الله سبحانه بصفاته، لأنه أدعى للإجابة، فقد ذيل الدعاء بالمغفرة والرحمة بقوله (وأنت أرحم الراحمين) فى ثلاث آيات، فى قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ سورة الأعراف: الآية ١٥١. وفى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ سورة المؤمنون: الآية ١٠٩. وفى قوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ سورة المؤمنون: ١١٨.

والتذييل بصفة الرحمة دون المغفرة فى هذه الآيات للتنصيص على سبب المغفرة، فكما سبق المغفرة لا تتحقق إلا برحمة الله، ولأن الرحمة أعم فهى تشمل المغفرة وتشمل غيرها من صنوف الإحسان.

وعبر عن رحمة الله بصيغة التفضيل للدلالة على عظم رحمة الله سبحانه وتفردها، فهى رحمة واسعة شملت جميع المخلوقات، والرحمة الموجودة فى المخلوقات رحمة واحدة من مائة رحمة عند الله، روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة...".

---

(١) التحرير والتنوير: ١٤١/٣.

وجاء تذييل الدعاء بالمغفرة والرحمة بأ ن الله سبحانه خير الغافرين فى موضع واحد فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ أن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾ سورة الأعراف: الآية ١٥٥. والسر فى ذلك – والله أعلم بمراده – أن المقام هنا ذكر فيه الرجفة التى أخذتهم، فتوقعوا أن يحل بهم الهلاك، فجاء التنصيص على عظم مغفرة الله سبحانه وتفرده عن باقى الموصوفين بالمغفرة لأن الهلاك مؤكد الوقوع، ودفع الضرر الذى ينتظرهم أهم عندهم من الإحسان والثواب، وقد ألمح إلى هذا المعنى أبو السعود فى قوله: "وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام"(١).

وإذا تأملت آيات الدعاء وجدت توافقاً بين المغفرة والرحمة فى اشتقاق الفعل من مصدرها "اغفر وارحم" إلا آية واحدة خولف بينهما فى فعل الدعاء، فقد عدل عن (وارحمنا) إلى (وأدخلنا فى رحمتك) وذلك فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى – عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ سورة الأعراف: ١٥١. وفى ذلك إشارة إلى دعائه بمزيد من الأنعام والإحسان، واستفيد ذلك من الاستعارة ، حيث جعلت الرحمة ظرفاً كالبيت وغيره يستقرون فيها، فالرحمة محيطة بهم كما يحيط الظرف بالمظروف.

* * *

وعبر عن المغفرة والرحمة بصيغة الفعل المضارع الواقع شرطاً فى مقام الندم والاعتراف بالذنب وذلك فى ثلاث آيات فى قوله تعالى حكاية عن أبينا آدم وأمنا حواء بعد أن ذاقا الشجرة: ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ سورة الأعراف: الآية ٢٣. وفى قوله تعالى حكاية عن قوم

(١) تفسير أبى السعود: ٣٠٢/٢.

سيدنا موسى – عليه السلام – بعد أن عبدوا العجل: ﴿**وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ سورة الأعراف: الآية ١٤٩. وفى قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح – عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَن أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ سورة هود: الآية ٤٧.

ففى الآيات الثلاث علق كونهم من الخاسرين على عدم تحقق مغفرة الله ورحمته بهم، فلا نجاة من الخسران إلا بالمغفرة والرحمة، وجاء الشرط بـــ "إن" التى تستعمل فى الشرط غير المقطوع بوقوعه النادر الحدوث للإشارة إلى أن عدم حدوث المغفرة والرحمة من الله أمر نادر غير محقق الوقوع؛ لأن رحمة الله سبحانه سبقت غضبه، وأكد جواب الشرط فى قول أبينا آدم وأمنا حواء باللام الموطئة للقسم ونون التوكيد للدلالة على تحقق الخسران إذا لم يغفر الله لهما ويرحمها، وأكد تعليق الشرط بالجواب بالقسم والنون فى قول سيدنا موسى – عليه السلام: ﴿**لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ لتأكيد تعليق الجواب على الشرط، فالوقوع فى الخسران محقق أن لم يغفر الله ويرحم.

وهذا بخلاف قول سيدنا نوح – عليه السلام – فقد جاء غير مؤكد بالقسم والنون وذلك فى قوله: ﴿**وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ والسر فى ذلك – والله أعلم بمراده – أن ما حدث من سيدنا نوح يختلف عما حدث من أبينا آدم – عليه السلام – ومن قوم موسى – عليه السلام – ، فسيدنا نوح – عليه السلام – ترك الأولى عندما سأل ربه إنجاء ابنه من الغرق أو المغفرة له فى الآخرة، وهذا ليس على درجة ما حدث من أبينا آدم عندما أكل من الشجرة، وما حدث من قوم موسى عندما عبدوا العجل.

٣- صيغة المبالغة:

معظم ما جاء فى القرآن الكريم من المغفرة والرحمة جاء على صيغتى المبالغة "فعول" فى جانب المغفرة – غفور وفعيل فى جانب الرحمة – رحيم؛ وغفور ورحيم أبلغ من غافر وراحم، لأن العدول عن بنية اسم الفاعل التى تفيد مجرد حصول الحدث إلى أبنية أخرى لابد أن يكون للمبالغة فى الحدث، فغفور يفيد المبالغة فى مغفرة الله لعباده مهما كثرت الذنوب، ولم يتصف بهذا الوصف على صيغة المبالغة إلا الحق سبحانه وتعالى، ورحيم يفيد المبالغة فى رحمة الله سبحانه، فرحمته شملت جميع الموجودات.

والمبالغة بالصيغتين فى حق الله سبحانه ترجع إلى كثرة من يغفر لهم وكثرة من يرحمهم، وقد انفرد الحق سبحانه باقتران الوصفين فى وصفه، فلم يوصف بالغفور الرحيم إلا الله سبحانه وتعالى.

وقد وصف الرسول بالرحيم فى قوله تعالى: ﴿...**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التوبة: الآية ١٢٨. ووصف به الصحابة معه فى قوله تعالى: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...** ﴾ سورة الفتح: الآية ٢٩. ولكن الوصف ليس على إطلاقه وعمومه فقد قيد بقوله **(بِالْمُؤْمِنِينَ)** وبقوله **(بَيْنَهُمْ)** وأين هذا من رحمة الله التى وسعت جميع الموجودات، المؤمن والكافر ، المطيع والعاصى، الإنسان والحيوان.

وقد حذف متعلق الغفور الرحيم لإفادة التعميم وعدم حصره فى فئة معينة، فالله سبحانه غفور لكل من تاب وأناب مهما عظمت ذنوبه، رحيم بجميع المخلوقات على اختلاف أجناسها..

وبالتأمل فى صيغتى "الغفور الرحيم" فى القرآن الكريم وجد أن بينهما توافقاً فى المبالغة – فالغفور على صيغة المبالغة فعول والرحيم على صيغة المبالغة فعيل – فى كل ما ورد فى القرآن الكريم عند اقترانهما إلا فى موضع واحد لم يأت الرحيم

فيه على وزن فعيل، وهو قوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ**...﴾ سورة الكهف: الآية ٥٨. فقال **(ذُو الرَّحْمَةِ)** ولم يقل الرحيم، فما السر فى اختلاف الصيغة هنا؟.

ذهب أبو السعود إلى أن الغفور أدل على المبالغة من **(ذُو الرَّحْمَةِ)** لأن الأول جاء على صيغة المبالغة والثانى بدونها، والسر فى المبالغة فى وصف الغفور دون وصف الرحيم هو "التنبيه على كثرة الذنوب، ولأن المغفرة ترك المضار، وهو سبحانه قادر على ترك ما يتناهى من العذاب، وأما الرحمة فهى فعل وإيجاد، ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى"(١).

وما ذهب إليه من أن الغفور أدل على المبالغة من **(ذُو الرَّحْمَةِ)** غير مسلم به، لأن **(ذُو الرَّحْمَةِ)** فيه مبالغة من طريق آخر غير صيغة المبالغة كما سنرى.

وتعليله للمبالغة فى صفة المغفرة دون صفة الرحمة بالدلالة على كثرة الذنوب التى تغفر للعباد مردود عليه بأن المغفرة أثر من آثار رحمة الله الواسعة، ويوجد بينهما ترابط وتلازم، فكثرة المغفرة ناجمة عن كثرة الرحمة.

وذهب ابن عاشور إلى أن الوصف بـ **(ذُو الرَّحْمَةِ)** يساوى فى المبالغة الوصف بـ "الرحيم"، وإنما عدل عن وصف "الرحيم" إلى **(ذُو الرَّحْمَةِ)** للتنبيه على أنه خبر لا نعت تنبيهاً بطريقة تغيير الأسلوب"(٢).

والوجه أن **(ذُو الرَّحْمَةِ)** أقوى مبالغة من (الرحيم) وتحققت المبالغة عن طريقين: الأول التعبير بـ "ذو" بمعنى صاحب، "وهى وضعت وصلة إلى وصف الأشخاص بالأجناس"(٣)، والوصف بالجنس أدل على المبالغة من الوصف بالمشتقات حتى لو كانت من صيغ المبالغة، قال ابن عاشور: "وهى تشعر بقوة أو وفرة ما تضاف إليه، فلا يقال ذو إنصاف إلا لمن كان قوى الإنصاف، ولا يقال ذو مال لمن عنده مال قليل"(٤).

---

(١) تفسير أبى السعود: ٣٨٩/٣، ٣٤٠.
(٢) التحرير والتنوير: ٣٥٧/١٥.
(٣) البرهان: ٢٧٧/٤.
(٤) التحرير والتنوير: ٨٦/٨.

الثانى تعريف "الرحمة بـــ أل"، وهى إما للحقيقـــة والجـــنس، أى الرحمـــة الكاملة، وإما للعهد، أى الرحمة المعهودة فى قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

وقد كشف الألوسى عن هذا الوجه وبين سر زيادة المبالغة فى الوصف بـــ (ذو الرحمة) ووجه اختصاصه بهذه الآية وذلك فى قوله: "ومن أنصف لم يشك فى أن قولك: ذو العلم أبلغ من قولك: فلان عليم، بل من قولك: فلان العليم، من حيـث أن الأول يفيد أنه صاحب ماهية العلم ومالكها ولا كذلك الأخيران، وحينئذ يكـون التفاوت بين الخيرين فى الآية بأبلغية الثانى، ووجه ذلك ظاهر، فإن الرحمة أوسع دائرة من المغفرة كما لا يخفى، والنكتة فيه ههنا مزيد إيناسهﷺ بعـد أن أخبـره سبحانه بالطبع على قلوب بعض المرسل إليهم وآيسه من اهتدائهم مع علمـه جـل شأنه بمزيد حرصه على ذلك، وهو السر فى إيثار عنوان الربوبيـة مضـافاً إلـى ضميره ﷺ"(١).

تأكيد الجملة فى الإخبار بالغفور الرحيم:

جاء التعبير القرآنى عن الغفور الرحيم فى نظم مؤكد فى مواضـع كثيـرة، والتأكيد فيه ليس لدفع الشك أو الإنكار ، وإنما لدواع تستنتج مـن تأمـل السـياق وقرائن الأحوال، تأمل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنـدَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ حَتَّـىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة البقرة: الآية ١٩١، ١٩٢. تجد أن جملة ﴿**فَإِنَّ اللَّـهَ غَفُـورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ وقعت جواب الشرط، وهى فى الحقيقة تعليل للجواب المحذوف، أى فـلا تقاتلوهم أن الله غفور رحيم، فالجواب المحذوف "لا تقاتلوهم" أثار فى النفس تساؤلاً عن حقيقة الخبر، فجاء قوله: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ جواباً عن هـذا التسـاؤل وتعليلاً له تنزيلاً لخالى الذهن منزلة السائل المتردد.

---

(١) روح المعانى: ١٥/٤٤٠.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ...**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة التوبة: الآية ٥. فالأمر بتخلية سبيله بعد توبتهم أثار فى النفس سؤلاً عن معرفة السبب فى هذا الأمر، ووقع قوله: ﴿ **أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ جواباً على هذا السؤال.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة البقرة: الآية ١٩٩. فالأمر بالاستغفار أثار فى نفس المخاطبين تساؤلاً وتطلعاً إلى معرفة الخبر، وجاء الخبر مؤكداً جواباً عن هذا التساؤل تنزيلاً للعالم بالحكم منزلة السائل المتردد.

وقد جاء تأكيد نظم الغفور الرحيم تنزيلاً لغير المنكر منزلة المنكر، كما فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أن رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا أن رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة النحل: الآية ١١٩. فقد أكدت جملة ﴿**إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ بتكرير (**إِنَّ رَبَّكَ**) وإن واللام وإسمية الجملة وصيغتى المبالغة مع أن المخاطبين تائبون مصلحون لا ينكرون مغفرة الله ورحمته. والسر فى ذلك أن هؤلاء لشدة خوفهم من عقاب الله واستعظامهم لذنوبهم مع توبتهم خوطبوا خطاب من ينكر مغفرة الله ورحمته تنزيلاً لهم منزلة من ينكر ذلك، وفى ذلك طمأنة لنفوسهم وترغيب لهم فى التوبة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا أن رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة الأعراف: الآية ١٥٣. فالذين تابوا وآمنوا لا ينكرون مغفرة الله ورحمته، "ولكنهم لما كانوا قد ارتكبوا السيئات واقترفوا الذنوب والآثام صاروا فى خوف من عقاب الله، وكلما تذكروا ما اقترفوا اقشعرت جلودهم وتذكروا عذاب الله، فنزلت حالتهم هذه وما هم فيه من خوف وقلق وعدم أمن، منزلة من ينكر رحمة الله ومغفرته، وألقى إليهم الخبر مؤكداً[(١)].

(١) علم المعانى: ١/٤٩.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة المائدة: الآية ٣٩. فالتائب من فعل الظلم لا ينكر توبة الله عليه، ولكنه لما استعظم ما اقترفه من ظلم، وسيطر الخوف من العقاب على نفسه، نزل منزلة من ينكر توبة الله عليه فأكد له الخبر ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ**﴾ وجاءت جملة ﴿ **أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ تعليلاً لقبول توبته، وأكدت بإن وصيغتى المبالغة لبث الطمأنينة فى نفسه وترغيبه فى التوبة مهما عظمت الذنوب.

* * *

ومن مقامات تأكيد نظم الغفور الرحيم مقام الوعد والوعيد كما فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ أن رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٦٧. ففى الآية ترهيب وترغيب ووعيد ووعد، وأكد الخبران بـ "أن" واللام وإسمية الجملة تحقيقاً للوعد والوعيد وتثبيتاً لهما فى النفوس، ومنه قوله تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ** عَذابي **هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ** ﴾ سورة الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠. فقد أكد الخبران بـ"إن" وضمير الفصل وتعريف الطرفين تحقيقاً للوعد والوعيد.

* * *

وقد جاء تأكيد نظم الغفور الرحيم للدلالة على تمكن الخبر فى نفس المتكلم وشدة إحساسه به، كما فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح – عليه السلام: ﴿**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ أن رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة هود: الآية ٤١. فقد جاء الخبر مؤكداً للدلالة على سيطرة هذا المعنى على نفس سيدنا نوح – عليه السلام – وشدة إحساسه به ومدى انفعاله به. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ أن النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ أن رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة يوسف: الآية ٥٣. فتأكيد الخبر فى قوله ﴿**إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ليس للرد على من ينكر ذلك، ولكن التأكيد يكشف عن حال المتكلم ومدى انفعاله بهذا المعنى. فصاغ الخبر مؤكداً للدلالة على تمكن المعنى فى نفسه وأنه صادر عن صميم قلبه، ولذلك عبر بالاسم الظاهر (**إِنَّ رَبِّي**) – والموضع موضع إضمار– لأن الربوبية تقتضى المغفرة والرحمة.

* * *

وقد يكون التأكيد للاهتمام بمضمون الخبر وتقريره فى نفس المخاطب كما فى قوله تعالى: ﴿...**سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ أن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التوبة: الآية ٩٩. فقد أكد الخبر لتثبيته وتقريره فى نفس المخاطب.

وقد جاء وصف الحق سبحانه وتعالى بصفتى الغفور الرحيم على وجه القصر وكان طريق القصر تعريف الطرفين وضمير الفصل.

وقصر صفتى الغفور الرحيم على الحق سبحانه من قبيل القصر الحقيقى التحقيقى، فكمال المغفرة والرحمة مقصور على الله سبحانه وتعالى، فالبشر قد يتصفون بشيء من المغفرة وبشيء من الرحمة ولكن لا يتصفون بهما على وجه المبالغة والعموم، تأمل قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ أن اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ سورة الزمر: الآية ٥٣. تجد أن فى الآية نهياً عن القنوط من رحمة الله، ووعداً للمسرفين بمغفرة جميع ذنوبهم، وجاء قوله سبحانه: ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ تعليلاً لقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ فغفران جميع الذنوب لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى الذى انفرد بعظيم المغفرة والرحمة، وجاء وصف الحق سبحانه بالغفور الرحيم بأسلوب القصر عن طريق تعريف الطرفين وضمير الفصل لتقرير مغفرة جميع الذنوب وبث الأمل فى نفوس المسرفين، فالله وحده هو القادر على مغفرة جميع الذنوب لأنه لا يتصف بعظيم المغفرة والرحمة إلا هو سبحانه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا أن اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ سورة الشورى: الآية ٥. وقد أكدت جملة ﴿**أَلَا أن اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ بأكثر من مؤكد، فقد صدرت بـ "ألا" وهى أداة تنبيه تدل على أن ما يذكر بعدها أمر يجب التنبه له والاهتمام به، وبـ "إن" ، وقصرت المغفرة والرحمة على الحق سبحانه فالله سبحانه هو المختص بالمغفرة والرحمة على وجه الكمال، ومن ذلك إبطال ما توهمه المشركون من أن شركاءهم يشفعون لهم.

٨ - خصائص نظم اقتران الرأفة بالرحمة.

صيغة الرأفة والرحمة:

جاء التعبير بالرأفة والرحمة عند اقترانهما على صيغتين:

أ - صيغة المبالغة. **ب – صيغة المصدر.**

أ - صيغة المبالغة:

معظم ما جاء فى القرآن الكريم من اقتران الرأفة بالرحمة جاء على صيغتي المبالغة "فعول" فى جانب الرأفة "رءوف" ، و"فعيل" فى جانب الرحمة "رحيم" .

وأفادت صيغة المبالغة كمال وصف الحق سبحانه بالرأفة والرحمة، فهو سبحانه متصف بالرأفة الكثيرة والرحمة الواسعة. والمبالغة فى اتصاف الحق سبحانه بهاتين الصفتين ترجع إلى كثرة من يرؤف بهم وكثرة من يرحمهم.

وقد جاء اقتران الوصفين على صيغة المبالغة فى الإخبار عن الحق سبحانه، ولم يأت اقترانهما على صيغة المبالغة فى وصف البشر إلا فى وصف سيدنا محمد ﷺ، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة: التوبة: الآية ١٢٨.

وهناك فرق بين وصف الحق سبحانه وتعالى بالرءوف الرحيم وبين وصف سيدنا محمد ﷺ. فالوصف بهما فى حق الله سبحانه مطلق عام، فهو سبحانه رؤوف بجميع الخلق مسلمهم وكافرهم، بارهم وفاجرهم، وهو سبحانه رحيم بجميع الخلائق على اختلاف أجناسها، كما فى قوله تعالى: ﴿**...إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة البقرة: الآية ١٤٣، وفى قوله تعالى: ﴿**...وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة النور: الآية ٢٠.

والوصف فى حق سيدنا محمد ﷺ جاء مقيداً بقيد وهو "بالمؤمنين رءوف رحيم" وقدم القيد على عامله لإفادة التخصيص ، فرأفته ورحمته ﷺ مقصورتان على المؤمنين دون الكافرين.

وتأمل صفات سيدنا محمد فى هذه الآية، حيث جاءت صفتان بدون قيد، وهما: "**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم** .."، فالخطاب هنا إما لعامة العرب وإما لعامة بنى الإنسان، فهو ﷺ حريص أشد الحرص على إيمانهم جميعاً.

وجاءت صفة الرأفة والرحمة مقيدتين بمن آمن بالله واتبع هدى نبيه. قال أبو حيان: "ولما كان المخاطبون عاماً، إما عامة العرب وإما عامة بنى الإنسان جاء الخطاب عاما بقوله: "**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم** "، أى على هدايتكم حتى لا يخرج أحد عن اتباعه فيهلك، ولما كانت الرأفة والرحمة خاصة جاء متعلقها خاصاً وهو قوله: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾، ألا ترى إلى قوله: ﴿..**جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**..﴾ سورة التوبة: الآية ٧٣. وقال: ﴿..**أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ..﴾ سورة المائدة: الآية ٥٤، وقال فى زناة المؤمنين : ﴿..**وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ أن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ..﴾ سورة النور: الآية ٢"(١).

ب - صيغة المصدر.

جاءت الرأفة والرحمة مقترنتين على صيغة المصدر فى موضع واحد، وذلك عند حديث القرآن عن أتباع سيدنا عيسى – عليه السلام– فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً**..﴾ سورة الحديد: الآية ٢٧. وجاء التعبير هنا بالمصدر ولم يأت على صيغة المبالغة، لأن المقام هنا لا يقتضى المبالغة، فالمقصود الإخبار بأن الله سبحانه وتعالى جعل فى قلوب أتباع سيدنا عيسى شيئاً قليلاً من الرأفة والرحمة، ولهذا جاءت الصفتان نكرتين لإفادة التقليل، وأفاد التنكير – بالإضافة إلى التقليل – التعظيم والتفخيم ، لأن الذى جعل الرأفة والرحمة فى قلوبهم هو الله سبحانه ، والشيء القليل من عند الله سبحانه أمر عظيم لا يدرك كنهه ، فالقليل منه سبحانه كثير لا يمكن تحديده ، عظيم لا حد لعظمته.

قليل منك يكفينى ولكن :::: قليلك لا يقال له قليل

---

(١) البحر المحيط: ١٢١/٥.

تأكيد الجملة فى الإخبار بالرءوف الرحيم:

جاءت الجملة فى الإخبار بالرءوف الرحيم مؤكدة – مع اختلاف درجة التأكيد – فى سبعة مواضع، وجاءت المواضع كلها فى الإخبار عن الحق سبحانه وتعالى.

فمما جاء مؤكداً بمؤكدين قوله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ أن اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة البقرة : الآية ١٤٣. فقد جاءت الجملة مؤكدة بإن واللام لأن الجملة التى قبلها " ..**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**.." جاءت منفية على وجه المبالغة ، حيث نفى فعل الكون، "وإقحام "كان فى النفى أقوى دلالة على انتفاء الحكم؛ لأن فعل "كان" لدلالته على الكون – أى الوجود – يقتضى نفيه انتفاء الكون الخاص برمته"(١). وأكد نفى الكون بلام الجحود؛ والجار والمجرور متعلق بخبر "كان" المحذوف وهو "مريداً" وفى ذلك تأكيد لنفى الكون؛ لأن "فى توجيه النفى إلى إدارة الفعل مبالغة ليست فى توجيهه إليه نفسه"(٢).

فلما كان نفى إضاعة إيمانهم على هذا القدر من المبالغة جاءت الجملة بعدها على هذا القدر من التأكيد . قال أبو حيان: "ولما كان نفى الجملة السابقة مبالغا فيه من حيث لام الجحود ناسب إثبات الجملة الخاتمة مبالغا فيها، فبولغ فيها بإن واللام وبالوزن على فعول وفعيل، كل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وكثرة الرأفة"(٣).

وتأمل الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله " **أن اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**" فلم يقل إنه بالناس لإفادة التعظيم "وتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير: م/١١، جـ ٢٧/٢٢.
(٢) روح المعانى: ١٠/٢.
(٣) البحر المحيط: ٦٠١/١.
(٤) تفسير ابى السعود: ٧٧/٤.

والتعقيب بقوله تعالى: "إن الله بالناس لرءوف رحيم" جاء بلفظه وصورته فى سورة الحج عقب التذكير بنعم الله سبحانه ، وذلك فى قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ أَنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة الحج: الآية ٦٥. وجاءت الجملة مؤكدة بإن واللام لأنها تعليل للنعم السابقة ، فالغرض من التأكيد تحقيق الخبر وتمكينه فى نفوس المخاطبين وتقديم "بالناس" فى الآيتين للاهتمام والعناية بهم؛ لأن المقصود بيان رأفته ورحمته بالناس، و"أل" فى الناس للاستغراق، فالله سبحانه رءوف رحيم بجميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم.

ومما جاء مؤكداً بمؤكدين أيضا قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة الحديد: الآية ٩. الخطاب فى الآية يجوز أن يكون للمشركين وللمنافقين، وأكد الخبر لأن الفريقين يعتقدون أن فى الإسلام إساءة لهم ولآلهتهم ، فجاء الخبر مؤكداً ليبطل اعتقادهم ويقرر أن فى الإسلام والقرآن الخير والفلاح؛ لأن منزل القرآن الكريم هو الرءوف الرحيم. قال ابن عاشور: "وتأكيد الخبر بإن واللام فى قوله : "**وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**" لأن المشركين فى إعراضهم عن دعوة الإسلام قد حسبوها إساءة لهم ولآبائهم وآلهتهم"(١).

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ أَن رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة النحل: الآية ٧. وقوله تعالى: ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة النحل: الآية ٧١. فقد جاء الخبر مؤكداً بمؤكدين فى الآيتين لأن الخبر فى الموضعين علة للأخبار السابقة، فجاءت العلة مؤكدة لتمكين الأخبار السابقة وتثبيتها فى النفوس. ففى الآية الأولى جاءت الجملة تعليلاً للمنافع التى خلق الله الأنعام لأجلها، وفى الآية الثانية جاءت

(١) التحرير والتنوير: م/١٣، جـ ٣٧٢/٢٧.

الجملة تعليلاً لقدرة الله سبحانه على إهلاكهم، ولكن الله سبحانه أمهلهم ولم يعجل لهم العذاب.

ونلاحظ هنا فى الآيتين أنه عبر بلفظ الربوبية ولم يعبر بلفظ الألوهية فقال: " **أن رَبَّكُمْ**"، وأضيف لفظ الرب إلى ضمير المخاطبين لما فى لفظ الرب من الإشعار بالتربية والرعاية، وذلك بجلب المنافع ودفع المضار.

ونلاحظ أن جملة "**فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**" فى الآية الثانية جاءت بالفاء بخلاف الجملة فى الآية الأولى فقد جاءت بدون الفاء " **أن رَبَّكُمْ**"، مع أن التأكيد بـ "إن" يقوم مقام الفاء فى أن الجملة التى بعدها علة لما قبلها، وعلى هذا تكون جملة "فإن ربكم" بالفاء أقوى تعليلاً من جملة "إن ربكم" بدون الفاء؛ لأن ذكر الفاء مع "إن" زاد فى قوة التعليل. قال الإمام عبد القاهر: "واعلم أن من شأن "إن" إذا جاءت على هذا الوجه أن تغنى غناء الفاء العاطفة مثلاً، وان تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً ، فأنت ترى الكلام مستأنفاً غير مستأنف ومقطوعاً موصولاً معاً"(١).

ومما جاء التأكيد فيه بمؤكد واحد قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التوبة : الآية ١١٧. فقد جاء الخبر مؤكداً بمؤكد واحد لأنه وقع استئنافاً بيانياً، حيث وقعت الجملة جواباً عن سؤال تضمنه الكلام السابق تقديره. لماذا تاب عليهم؟ فكان الجواب لأنه متصف بكمال الرأفة والرحمة. قال أبو السعود: " **إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** " استئناف تعليلى، فإن صفة الرأفة والرحمة من دواعى التوبة والعفو"(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة النور: الآية ٢٠. فقد عطفت جملة " **وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**" على "فضل الله ورحمته"، والمعنى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ولولا انه سبحانه متصف بكمال الرأفة والرحمة للخلق جميعاً لنزل عليهم عذاب لا يحيط به نطاق

---

(١) دلائل الإعجاز: /٢٧٣.

(٢) تفسير أبى السعود: ٤٥٥/٢.

البيان، وحذف جواب لولا للتفخيم والتهويل، ولتذهب النفس فى تقديره كل مذهب ممكن.

وجاء الخبر مؤكداً بإن لتقريره وتمكينه فى النفوس، فالمراد اتصاف الله سبحانه بكمال الرأفة والرحمة للناس كافة على الدوام والاستمرار، ويدخل فيهم هؤلاء الذين جاءوا بالإفك. قال أبو السعود: "عطف على فضل الله، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة ، وتغيير سبكة وتصديره بحرف التحقيق لما أن المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة التى هى كمال الرحمة والرحيمية التى هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار، لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم"(١).

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ ..**رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة الحشر: الآية ١٠. فقد جاء الخبر مؤكداً بمؤكد واحد للدلالة على تمكن الخبر فى نفس المتكلم وشدة إحساسه وانفعاله به.

ولم يأت وصف الحق سبحانه بالرءوف الرحيم على وجه القصر؛ لأن المقام لا يقتضى إثبات الصفتين لله سبحانه وحده ونفيهما عن جميع من سواه. وقد أثبتهما الله سبحانه لسيدنا محمد ﷺ فى قوله: ﴿..**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة التوبة: الآية ١٢٨، وكما ذكرت فهناك فرق بين إثباتهما للحق سبحانه وإثباتهما لسيدنا محمد ﷺ؛ فإثباتهما للحق سبحانه جاء على وجه الإطلاق لإفادة عموم رأفته ورحمته لجميع الخلق، وإثباتهما لسيدنا محمد جاء على وجه التقييد بالمؤمنين دون غيرهم.

وأثبتهما الحق سبحانه لأتباع سيدنا عيسى – عليه السلام – بصيغة المصدر، حيث جعل الله سبحانه فى قلوبهم رأفة ورحمة، فقال سبحانه: ﴿..**وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً..**﴾ سورة الحديد: الآية ٢٧.

---

(١) المصدر السابق: ٤/٧٧.

وجاء وصف الحق سبحانه وتعالى بصفتى الغفور الرحيم على وجه القصر كما سبق أن ذكرنا فى آيات كثيرة؛ لأن المقام يقتضى تخصيص الله سبحانه بالاتصاف بهما على وجه المبالغة والعموم كما فى قوله تعالى: ﴿..**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ سورة الزمر: الآية ٥٣، وكما فى قوله تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ سورة الحجر: الآية ٤٩.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

الخـــاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد أفصح الفصحاء أجمعين.

وبعد،،،

فبعد هذه الدراسة التى حاولت فيها الكشف عن بعض الأسرار البلاغية فـــى ختم الآيات القرآنية باقتران المغفرة والرأفة بالرحمة تبين لى بعض النتائج، ومـــن أهم هذه النتائج:

١- أن اقتران المغفرة بالرحمة أكثر من اقتران الرأفة بالرحمة، فقد جاء اقتـــران المغفرة بالرحمة فى أربعة وثمانين موضعاً، وجاء اقتران الرأفة بالرحمة فى تسعة مواضع، وهذا يرجع إلى أن مقامات التعبير بالمغفرة والرحمة أكثر من مقامات التعبير بالرأفة والرحمة.

٢- أن المناسبة بين ختم الآيات بالمغفرة والرأفة والرحمة وبين بدايـــة الآيـــات مناسبة قوية، وهذه المناسبة كانت ظاهرة فى بعض المواضع بحيث تـــدرك بأدنى تأمل ، وكانت خفية تحتاج إلى إعمال فكر وكثرة تأمل فـــى مواضـــع أخرى.

٣- أن المغفرة قدمت على الرحمة فى معظم المواضع التى اقترن فيها اللفظان، وذلك لأن الرحمة سبب فى تحقق المغفرة وعلة لحصولها، ولم تتقدم الرحمة على المغفرة إلا فى موضعين، موضع فى سورة الأعراف فى قوله تعـــالى: ﴿ .. **لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا..**﴾ الآية ١٤٩، وموضع فى سورة ســـبأ فى قوله تعالى: سورة:﴿ .. **وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَـــا ۚ وَهُـــوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ..**﴾ الآية ٢. وقد كشفت خلال الدراسة عن السر فى التقديم.

٤- أن الرأفة قدمت على الرحمة فى كل المواضع التى اقترن فيها اللفظان؛ لأن الرأفة تدل على التلطف واللين والمعاملة برفق وشفقة وإزالة المشاق، والرحمة تدل على الإنعام، والمناسب تقديم الرأفة على الرحمة من هذه الجهة، كما فى المثل: "الإيناس قبل الإبساس".

٥- أن التقديم والتأخير بين هذه الألفاظ وقع لتحقيق فائدة معنوية بجانب الفائدة اللفظية وهى المحافظة على الفاصلة، ورد البحث على الرأى القائل بأن التقديم والتأخير وقع لتحقيق فائدة لفظية فقط.

٦- أن صيغة الألفاظ لها دخل فى الدلالة، وأن السياق يقتضى اختيار صيغة على صيغة أخرى، وقد تنوعت صيغة المغفرة والرحمة عند اقترانهما. حيث عبر عنهما بصيغة المصدر فى موضعين: الأول فى سورة آل عمران: الآية ١٥٧، والثاني فى سورة النساء: الآية ٩٦. وعبر عنهما بصيغة الفعل فى ثمانية مواضع، وكلها جاءت فى مقام الدعاء والاعتراف بالذنب وذلك فى سورة البقرة: الآية ٢٨٦، وسورة الأعراف الآيات : ٢٣، ١٤٩، ١٥١، ١٥٥، وفى سورة هود الآية ٤٧، وفى سورة المؤمنون: الآيتان ١٠٩، ١١٨.

- وجاء اقتران المغفرة بالرحمة على صيغة المبالغة فعول وفعيل فى باقى المواضع، ولم يخرج عن هذا إلا موضع واحد فى سورة الكهف فى قوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ..**﴾ الآية ٥٨.

- أما اقتران الرأفة بالرحمة فقد جاء على صيغة المبالغة فعول وفعيل فى معظم المواضع، ولم يخرج عن هذا إلا موضع واحد فى وصف أتباع سيدنا عيسى – عليه السلام – فى قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً..**﴾ سورة الحديد: الآية ٢٧. حيث عبر عنهما بالمصدر.

٧- أن الوصف بالغفور الرحيم معا بصيغتى المبالغة لم يأت إلّا فى الإخبار عن الحق سبحانه وتعالى.

٨- أن الوصف بالرءوف الرحيم معا بصيغتى المبالغة جاء فى مقام الإخبار عن الحق سبحانه فى سبعة مواضع، وجاء فى موضع واحد فى وصف سيدنا محمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿..**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التوبة: الآية ١٢٨. ولم يعط الله سبحانه أحداً من خلقه هذين الوصفين بصيغتى المبالغة إلا لخاتم الأنبياء والمرسلين.

٩- تنوع الخبر فى الإخبار بالغفور الرحيم والرءوف الرحيم من جهة التأكيد ودرجته وعدم التأكيد.

١٠- أن الإخبار عن الحق سبحانه بالغفور الرحيم جاء بأسلوب القصر فى عدة مواضع، ولم يأت الإخبار عن الحق سبحانه بالرءوف الرحيم بأسلوب القصر فى أى موضع.

١١- أن معظم ما جاء من اقتران المغفرة بالرحمة وقع فاصلة، وجاء اقترانهما فى وسط الآيات فى أحد عشر موضعاً.

١٢- أن معظم ما جاء من اقتران الرأفة بالرحمة جاء فاصلة، وجاء اقترانهما فى وسط الآية فى موضع واحد.

هذا وبالله التوفيق والسداد

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

المصادر والمراجع

١- البحر المحيط – أبو حيان الأندلسى – طبعة دار الفكر للطباعة والنشر.
٢- بدائع الفوائد – ابن القيم الجوزية – نشر دار الكتاب العربى للطباعة – بيروت.
٣- البرهان فى علوم القرآن – بدر الدين الزركشى – ت. محمد ابو الفضل إبراهيم – دار الجيل – بيروت ١٩٨٨م.
٤- التحرير والتنوير – محمد الطاهر ابن عاشور – دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس.
٥- تحرير التحبير – ابن أبى الأصبع – ت. د. حفنى شرف – ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٥م.
٦- تفسير أبى السعود – أبو السعود العمادى – ط. دار الفكر.
٧- تفسير القرطبى – أبو عبد الله الأنصارى القرطبى – دار الريان للتراث.
٨- التفسير الكبير – الفخر الرازى – دار الغد العربى.
٩- جَلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام – ابن قيم الجوزية – ط. مكتبة المتنبى – القاهرة.
١٠- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى – شهاب الدين الخفاجى – ط. صادر بيروت.
١١- حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوى – المطبعة العثمانية – تركيا.
١٢- درة التنزيل وغرة التأويل – الخطيب الاسكافى – ط. المكتبة التوفيقية.
١٣- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجانى، قراءة وتعليق/ محمود شاكر – نشر مكتبة الخانجى القاهرة.
١٤- روح المعانى – محمود الألوسى – دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت.

١٥- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا، ط. رابعة، نشر دار العلم للملايين – بيروت.
١٦- علم المعانى – د.بسيونى فيود – مطبعة السعادة – ط. أولى.
١٧- فتح البارى بشرح صحيح البخارى – ابن حجر العسقلانى – ط. لجنة إحياء التراث الإسلامى – القاهرة.
١٨- الفروق اللغوية – ابو بكر هلال العسكرى – ط. دار الكتب العلمية – بيروت.
١٩- فوائد فى مشكل القرآن – عز الدين بن عبد السلام – ت. د . سيد رضوان على – دار الشروق – جدة.
٢٠- كتاب العين – الخليل ابن احمد- تحقيق عبد الحميد هنداوى – نشر دار الكتب العلمية – بيروت.
٢١- الكشاف – الزمخشرى – ط. مصطفى البابى الحلبي- ١٩٧٢م.
٢٢- لسان العربية – ابن منظور – ط. دار المعارف.
٢٣- المثل السائر – ضياء الدين بن الأثير – ت. د. أحمد الحوفى، د. بدوى طبانه – ط.. دار نهضة مصر.
٢٤- مسائل الرازى من غرائب آى التنزيل – محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى- ت. إبراهيم عطوة عوض- ط. مصطفى البابى الحلبي.
٢٥- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم – الراغب الأصفهانى – دار الفكر العربي – بيروت.
٢٦- نتائج الفكر فى النحو – السهيلى – ت. عادل أحمد عبد الموجود ، على محمد معوض- دار الكتب العلمية – بيروت.

فهرس موضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٦٠٠٧
٢	١ـ دلالة اقتران المغفرة بالرحمة	٦٠٠٩
٣	٢ـ دلالة اقتران الرأفة بالرحمة	٦٠١٠
٤	٣ـ مقامات اقتران المغفرة بالرحمة	٦٠١١
٥	٤ـ مقامات اقتران الرأفة بالرحمة	٦٠٣٠
٦	٥ـ ترتيب المغفرة والرحمة فى الذكر	٦٠٣٦
٧	٦ـ ترتيب الرأفة والرحمة فى الذكر	٦٠٤٢
٨	٧ ـ خصائص نظم اقتران المغفرة بالرحمة	٦٠٤٥
٩	صيغة المغفرة والرحمة	٦٠٤٥
١٠	١ـ صيغة المصدر	٦٠٤٥
١١	٢ـ صيغة الفعل	٦٠٤٦
١٢	٣ـ صيغة المبالغة	٦٠٥٠
١٣	تأكيد الجملة فى الإخبار بالغفور الرحيم	٦٠٥٢
١٤	٨ـ خصائص نظم اقتران الرأفة بالرحمة	٦٠٥٦
١٥	صيغة الرأفة والرحمة	٦٠٥٦
١٦	أ ـ صيغة المبالغة	٦٠٥٦
١٧	ب ـ صيغة المصدر	٦٠٥٧
١٨	تأكيد الجملة فى الإخبار بالرءوف الرحيم	٦٠٥٨
١٩	الخاتمة	٦٠٦٣
٢٠	فهرس المصادر والمراجع	٦٠٦٦
٢١	فهرس الموضوعات	٦٠٦٨